هُـدى اللَّه

السـؤال : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ﴾ نرجو توضيح ذلك ؟

الجـواب : ينبهنا اللَّه سبحانه وتعالى إلى هذه القضية فيقول : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ﴾ [البقرة : ١٢٠] .

إن اللَّه يريد أن يلفت خلقه إلى أنهم إذا أرادوا أن يصلوا إلى الهدف الثابت الذى لا يتغير فليأخذوه عن اللَّه . وإذا أرادوا أن يتبعوا الطريق الذى لا توجد فيه أي عقبات أو متغيرات . . فليأخذوا طريقهم عن اللَّه تبارك وتعالى . . إنك إذا أردت باقيًا . . فخذ من الباقى ، وإذا أردت ثابتًا . . فخذ من الثابت . . ولذلك كانت قوانين البشر فى تحديد أهدافهم فى الحياة وطريقة الوصول إليها قاصرة . . علمت أشياء وغابت عنها أشياء . . ومن هنا فهي تتغير وتتبدل كل فترة من الزمان .

ذلك أن مَنْ وضع القوانين من البشر له هدف يريد أن يحققه ، ولكن اللَّه جل جلاله لا هوى له . . فإذا أردت أن تحقق سعادة فى حياتك ، وأن تعيش آمنًا مطمئنًا . . فخذ الهدف عن اللَّه ، وخذ الطريق عن اللَّه . فإن ذلك ينجيك من قلق متغيرات الحياة التى تتغير وتتبدل . واللَّه قد حدد لخلقه ولكل مافي كونه أقصر طريق لبلوغ الكون سعادته . والذين لا يأخذون هذا الطريق يتعبون أنفسهم ويتعبون مجتمعهم ولا يحققون شيئًا .

إذن . . فالهدف يحققه اللَّه لك ، والطريق يبينه اللَّه لك . . وما عليك إلا أن تجعل مراداتك فى الحياة خاضعة لما يريده اللَّه .

ويقول اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ٢] . . ما معنى المتقين ؟ متقين جمع متقٍ . . والاتقاء من الوقاية . . والوقاية هي الاحتراس والبعد عن الشر .(١)

---

(١) قال العلامة القرطبي فى التفسير قوله تعالى : ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ خص اللَّه تعالى المتقين بهدايته =

= وإن كان هدى للخلق أجمعين تشريفا لهم ، لأنهم آمنوا وصدقوا بما فيه . وروي عن أبى رَوق أنه قال: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي كرامة لهم ، يعنى : إنما أضاف إليهم إجلالا لهم وكرامة لهم وبيانا لفضلهم . وأصل ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ : للموتقيين بياءين مخففتين ، حذفت الكسرة من الياء الأولى لثقلها ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين وأبدلت الواو تاء على أصلهم فى اجتماع الواو والتاء وأدغمت التاء فى التاء فصار للمتقين .

الخامسة : التقوى يقال أصلها فى اللغة قلة الكلام ، حكاه ابن فارس . قلت ومنه الحديث « التقي مُلْجَم والمتقي فوق المؤمن والطائع » وهو الذى يتقي بصالح عمله وخالص دعائه عذاب اللّه تعالى ، مأخوذ من اتقاء المكروه بما تجعله حاجزا بينك وبينه، كما قال النابغة :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

وقال آخر :

فألقت قناعا دونه الشمس واتقت بأحسن موصولين كف ومعصم

وخرج أبو محمد عبد الغني الحافظ من حديث سعيد بن زَربي أبي عبيدة عن عاصم ابن بهدلة عن زر بن حبيش عن ابن مسعود قال : قال يوما لابن أخيه : يا ابن أخي ترى الناس ما أكثرهم ؟ قال : نعم ، قال : لا خير فيهم إلا تائب أو تقي ثم قال : يا ابن أخي ترى الناس ما أكثرهم ؟ قلت : بلى ، قال : لا خير فيهم إلا عالم أو متعلم . وقال أبو يزيد البسطامى : المتقي من إذا قال قال لله ، ومن إذا عمل عمل لله. وقال أبو سليمان الدارانى : المتقون الذين نزع اللّه عن قلوبهم حب الشهوات . وقيل : المتقي الذى اتقى الشرك وبرئ من النفاق . قال ابن عطية : وهذا فاسد ، لأنه قد يكون كذلك وهو فاسق . وسأل عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه أُبيا عن التقوى ، فقال : هل أخذت طريقا ذا شوك ؟ قال : نعم : قال فما عملت فيه ؟ قال : تشمرت وحذرت، قال : فذاك التقوى . وأخذ هذا المعنى ابن المعتز فنظمه :

خل الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

السادسة : التقوى فيها جماع الخير كله ، وهي وصية اللّه فى الأولين والآخرين ، وهي خير ما يستفيده الإنسان ، كما قال أبو الدرداء وقد قيل له : إن أصحابك يقولون الشعر وأنت ما حفظ عنك شيء ، فقال :

يريد المرء أن يؤتى مناه ويأبى اللّه إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتي ومالي وتقوى اللّه أفضل ما استفادا

وروى ابن ماجه فى سننه عن أبى أمامة عن النبى صلى اللّه عليه وسلم أنه كان يقول : « ما استفاد المؤمن بعد تقوى اللّه خير له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته=

= وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله »[1] .

والأصل فى التقوى : وَقْوَى على وزن فعلى فقلبت الواو تاء من وقيته أقيه أي منعته ، ورجل تقي أي خائف ، أصله وقى ، وكذلك تقاة كانت فى الأصل وقاة ، كما قالوا : تجاه وتراث ، والأصل وجاه ووراث .

وجاء فى الدر المنثور للسيوطى :

أخرج وكيع وابن جرير عن الشعبي فى قوله : ﴿ هُدًى ﴾ قال : من الضلالة .

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ هُدًى ﴾ قال : نور ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ قال : هم المؤمنون .

وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أى : الذين يحذرون من أمر اللّه عقوبته فى ترك ما يعرفون من الهدى ، ويرجون رحمته فى التصديق بما جاء منه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ قال : للمؤمنين الذين يتقون الشرك ويعملون بطاعتى .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ قال : جعله اللّه هدى وضياء لمن صدق به ، ونورا للمتقين .

وأخرج أبن أبي حاتم عن معاذ بن جبل قال : يحبس الناس يوم القيامة بقيع واحد ، فينادي مناد : أين المتقون ؟ فيقومون فى كنف الرحمن ، لا يحتجب اللّه منهم ، ولا يستتر . قيل : من المتقون ؟ قال : قوم اتقوا الشرك ، عبادة الأوثان واخلصوا لله العبادة ، فيمرون إلى الجنة .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخارى فى تاريخه والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عن عطية السعدي وكان من الصحابة قال : « قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لا يبلغ العبد المؤمن أن يكون من المتقين ، حتى يدع ما لا بأس به حذرا لما به بأس »[2] .

وأخرج ابن أبي الدنيا فى كتاب التقوى عن أبي هريرة . أن رجلا قال له : ما التقوى ؟ قال : هل أخذت طريقا ذا شوك ؟ قال : نعم . قال : فكيف صنعت ؟ قال : إذا رأيت الشوك عدلت عنه ، أو جاوزته ، أو قصرت عنه ، قال : ذاك التقوى .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم عن طلق بن حبيب أنه قيل له : ألا تجمع لنا التقوى فى كلام يسير يرونه ؟ قال : التقوى العمل بطاعة اللّه على نور من اللّه رجاء رحمة اللّه ، والتقوى ترك معاصي اللّه على نور من اللّه مخافة عذاب اللّه . =

(١) رواه ابن ماجه [١٨٥٧] وقال الألباني : ضعيف ، والطبرانى فى الكبير [٨/ ٢٢٢/ ٧٨٨١] .

(٢) رواه الترمذى [٢٤٥١] ، وابن ماجه [٤٢١٥] وقال الألباني : ضعيف ، والحاكم [٤/ ٣٥٥] ، وعبد بن حميد فى مسنده [١/ ١٧٦] ، والبيهقى فى الكبرى [٥/ ٣٣٥/ ١٠٦٠٢] .

obeikandl.com

= وأخرج أحمد فى الزهد وابن أبي الدنيا عن أبي الدرداء قال : تمام التقوى أن يتقي الله العبد ، حتى يتقيه من مثقال ذرة ، وحتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما . يكون حجابا بينه وبين الحرام .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن الحسن قال : ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيرا من الحلال مخافة الحرام .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن سفيان الثوري قال : إنما سموا المتقين لأنهم اتقوا ما لا يتقى .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الله بن المبارك قال : لو أن رجلا اتقى مائة شيء ولم يتق شيئا واحدا ، لم يكن من المتقين . وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا عن عون بن عبد الله قال : تمام التقوى أن تبتغي علم ما لم تعلم منها، إلى ما قد علمت منها .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن رجاء قال : من سره أن يكون متقيا فليكن أذل من قعود أبل ، كل من أتى عليه أرغاه .

وأخرج ابن أبي الدنيا من طريق مالك بن أنس عن وهب بن كيسان قال : « كتب رجل إلى عبد الله بن الزبير بموعظة . أما بعد . . فإن لأهل التقوى علامات يعرفون بها ويعرفونها من أنفسهم . من صبر على البلاء ، ورضى بالقضاء ، وشكر النعماء ، وذل لحكم القرآن » .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن المبارك قال : قال داود لابنه سليمان عليه السلام : يا بني إنما تستدل على تقوى الرجل بثلاثة أشياء . لحسن توكله على الله فيما نابه ، ولحسن رضاه فيما أتاه، ولحسن زهده فيما فاته .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن سهم بن سحاب قال : معدن من التقوى لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله .

وأخرج أحمد فى الزهد وابن أبي الدنيا عن سعيد بن أبي سعيد المقبري قال : بلغنا أن رجلا جاء إلى عيسى فقال: يا معلم الخير كيف أكون تقيا لله كما ينبغي له ؟ قال : بيسير من الأمر . تحب الله بقلبك كله ، وتعمل بكدحك وقوتك ما استطعت ، وترحم ابن جنسك كما ترحم نفسك . قال : من ابن جنسي يا معلم الخير ؟ قال : ولد آدم كلهم ، وما لا تحب أن يؤتى إليك فلا تأته إلى أحد فأنت تقي لله حقا .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن إياس بن معاوية قال : رأس التقوى ومعظمه أن لا تعبد شيئا دون الله ، ثم تتفاض الناس بالتقى والنهى .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عون بن عبد الله قال : فواتح التقوى حسن النية ، وخواتمها التوفيق ، والعبد فيما بين ذلك ، بين هلكات وشبهات ، ونفس تحطب على سلوها ، وعدو مكيد غير غافل ولا عاجز .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن محرز الطفاري قال : كيف يرجو مفاتيح التقوى من يؤثر على الآخرة الدنيا ؟!

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عمر بن عبد العزيز قال : ليس تقوى الله بصيام النهار ، ولا =

obeikandl.com

.....

= بقيام الليل ، والتخليط فيما بين ذلك ، ولكن تقوى اللّه ، ترك ما حرم اللّه ، وأداء ما افترض اللّه ، فمن رزق بعد ذلك خيرا فهو خير إلى خير .

وأخرج ابن أبى الدنيا عن محمد بن يوسف الفريابى قال : قلت لسفيان أرى الناس يقولون سفيان الثورى ، وأنت تنام الليل ؟ فقال لى : اسكت . . ملاك هذا الأمر التقوى

وأخرج ابن أبى الدنيا عن شبيب بن شبة قال : تكلم رجل من الحكماء عند عبد الملك ابن مروان ، فوصف المتقى فقال: رجل آثر اللّه على خلقه، وآثر الآخرة على الدنيا ، ولم تكربه المطالب ، ولم تمنعه المطامع ، نظر ببصر قلبه إلى معالى إرادته ، فسما لها ملتمسا لها ، فزهده مخزون ، يبيت إذا نام الناس ذا شجون ، ويصبح مغموما فى الدنيا مسجونا ، قد انقطعت من همته الراحة دون منيته، فشفاؤه القرآن ، ودواؤه الكلمة من الحكمة والموعظة الحسنة ، لا يرى منها الدنيا عوضا، ولا يستريح إلى لذة سواها . فقال عبد الملك : أشهد أن هذا أرجأ بالا منا ، وأنعم عيشا .

وأخرج ابن أبى شيبة وأبو نعيم فى الحلية عن ميمون بن مهران قال : لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه ، حتى تعلم من أين مطعمه، ومن أين ملبسه ، ومن أين مشربه ، أمن حل ذلك أو من حرام ؟

وأخرج ابن أبى الدنيا عن عمر بن عبد العزيز. أنه لما ولى حمد اللّه وأثنى عليه ثم قال : أوصيكم بتقوى اللّه ، فإن تقوى اللّه خلف من كل شىء ، وليس من تقوى اللّه خلف .

وأخرج ابن أبى الدنيا عن عمر بن عبد العزيز قال : يا أيها الناس اتقوا اللّه ، فإنه ليس من هالك إلا له خلف إلا التقوى .

وأخرج ابن أبى الدنيا عن قتادة قال : لما خلق اللّه الجنة قال لها تكلمى قالت : طوبى للمتقين .

وأخرج ابن أبى الدنيا عن مالك بن دينار قال : القيامة عرس المتقين .

وأخرج ابن أبى الدنيا عن محمد بن يزيد الرحبى قال: قيل لأبى الدرداء : إنه ليس أحد له بيت فى الأنصار إلا قال شعرا، فما لك لا تقول ؟! قال : وأنا قلت فاستمعوه:

يريد المرء أن يعطى مناه ... ويأبى اللّه إلا ما أرادا

يقول المرء فائدتى وذخرى ... وتقوى اللّه أفضل ما استفادا

وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العفيف وكان من أصحاب معاذ بن جبل قال : يدخل أهل الجنة على أربعة أصناف . المتقين ، ثم الشاكرين ، ثم الخائفين ، ثم أصحاب اليمين .

وجاء فى كتاب مجمع الأمثال والحكم فى الشعر العربى لأحمد قبس من شعر أبى محفوظ الكرخى :

موتُ التقيِّ حياةٌ لا نفادَ لها ... قد ماتَ قومٌ وهمْ فى الناسِ أحياءُ

وفيه لأبى العتاهية :

ألا إنما التقوى هى العز والكرمْ ... وَحبكَ للدنيا هو الذُّلُّ والندمْ

وليس على عبدٍ تقى نقيصةٌ ... إذا صَحَّحَ التقوى وإن حاكَ أو حجمْ =

= وفيه للشريف العقيلي :

إذا شيدَ الإنسانُ أبنيةَ التقى وغادرَها بالحرصِ وهي شوامخُ
فذاكَ الذى يأوي إلى حسناتهِ فتعصمه منها جبالٌ رواسخُ
ومن صحبَ التقوى فليس بنادمٍ إذا صرخَتْ يوماً عليه الصوارخُ

وفيه لأمير المؤمنين علي رضى اللّه تعالىٰ عنه :

لعمُركَ ما الإنسانُ إلا بدينهِ فلا تتركِ التقوى اتكالاً على النَّسَبْ
فقد رفعَ الإسلامُ سلمانَ فارسٍ وقد وَضَعَ الشِّرْكُ الشريفَ أبا لهبْ

obeikandl.com

الابتلاءات .. والإنسان

السؤال : كيف يكون الابتلاء من اللَّه ليس شرًا دائمًا الشر يسقط الإنسان فى الابتلاء كيف يكون ذلك ؟

الجواب : يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٥] .

نعرف أن مجرد الابتلاء ليس شرًا ، ولكن الشر هو أن تسقط فى الابتلاء ، فكل ابتلاء هو اختبار وامتحان ، ولم يقل أحد : إن الامتحانات شر ، إنها تصير شرًا من وجهة نظر الذى لم يتحمل مشاق العمل للوصول إلى النجاح ، أما الذى بذل الجهد وفاز بالمركز الأول ، فالامتحانات خير بالنسبة له ، إذن فقول الحق : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم ﴾ أى : سنصنع لكم امتحانًا يصفي البطولة للعقيدة الجديدة .

والحق سبحانه قد ذكر لنا قبل هذه الآية قمة الابتلاءات ؛ وهي أن ينال الإنسان الاستشهاد فى سبيل اللَّه ، وذكر ثواب الشهيد ، وهو البقاء على هيئة من الحياة عند ربه ، وكان ذلك مقدمة للابتلاءات الأقل ، فقمة الابتلاء -في حدود إدراكنا - هي فقد الحياة ، وأراد الحق أن يعطى المؤمنين مناعة فيما دون الحياة ، مناعة من الخوف والجوع ونقص فى الأموال والأنفس والثمرات . وكل ما دون الفرد هو أمرٌ تَرَفِيّ بالنسبة لفقد الحياة نفسها ، فمن لم يفقد حياته : فستأتى له ابتلاءات فيما دون حياته وهي ابتلاءات الخوف والجوع ونقص فى الأموال ، ونقص فى عدد الإخوة المؤمنين ، وكذلك نقص فى الثمرات ، وكل هذه أشياء يحبها الإنسان ، ويأتى التكليف ليطلب من المؤمن أن يترك بعضًا مما يحب ، وتلك الابتلاءات تدخل فى نطاق بقاء التكليف .

وأول تلك الابتلاءات[١] هو الخوف ، والخوف هو انزعاج النفس

---

(١) المعروف أن الابتلاء يكون فى الخير والشَّر مَعاً من غير فرق بين فِعْلَيْهما . ومنه قوله =

وعدم اطمئنانها من توقع شيء ضار ، فالنفس لها ملكات متعددة ، وعندما

= تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء : ٣٥] .
ومنه الحديث : « من أُبْلِيَ فذَكَر فقدْ شَكَر »[١] .
و الإبْلاء : الإنعام والإحسان ، يقال بلَوْت الرجُلَ وأبْلَيْت عنده بَلاءً حسَنا .
والابْتِلاء فى الأصل الاخْتِبار والامْتِحان . يقال بَلَوْتُه وأبْلَيْتُه وابْتَلَيْتُه .
ومنه حديث كعب بن مالك « ما عَلِمت أحدا أبْلاه اللّه أحْسَن ممَّا أبْلانى »[٢] .
ومنه الحديث : « اللّهم لا تُبْلِنَا إلّا بالّتي هي أحسن »[٣] أي لا تَمْتَحِنَّا .
والخوف هو الذعر ولا يكون إلا فى المستقبل وخاوفني فلان فخفته أي كنت أشد خوفا منه والتخوف التنقص ومنه قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ [النحل : ٤٧] .
وروى الشيخان مرفوعا : سبعة يظلهم اللّه تعالى فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، فذكر منهم . ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنى أخاف الله[٤] . وفى حديث الترمذى والحاكم فى قصة الكفل الذى كان فى بني إسرائيل وكان لا يتورع عن ذنب، أنه دعا امرأة وراودها عن نفسها وأعطاها ستين دينارا على أن يطأها ، فلما جلس مجلس الرجل من امرأته ارتعدت وبكت ، فقال : ما يبكيك ؟ قالت : لأن هذا عمل ما عملته قط ، وما حملني عليه إلا الحاجة ، فقال أو تفعلين هذا من مخافة اللّه ؟ فأنا أحرى بذلك اذهبي ولك ما أعطيتك ، والله لا أعصيه بعدها أبدا ، فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه ، إن اللّه قد غفر للكفل فعجب الناس من ذلك[٥] .
وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « الرجل يسرف على نفسه ، فلما حضره الموت قال لبنيه إذا أنا مت فأحرقوني واسحقوني ثم ذروني فى الريح ، فوالله لئن قدر اللّه علي ليعذبني عذابا ما عذبه أحدا ، فلما مات فعل به بنوه ذلك . فأمر اللّه الأرض أن أجمعي ما فيك ففعلت فإذا هو قائم فقال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : خشيتك يا رب أو قال مخافتك ، فغفر له »[٦] . وفى رواية للشيخين مرفوعا : « قال رجل ـ لم يعمل حسنة قط ـ لأهله : إذا مت فأحرقوه ثم ذروا نصفه فى البر ونصفه فى البحر ، فوالله لئن قدر اللّه عليه ليعذبنه عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين ، فلما مات الرجل فعلوا به ما أمرهم ، فأمر اللّه البر فجمع ما فيه ، وأمر البحر فجمع ما فيه ، ثم قال : لم فعلت هذا ؟ قال : من خشيتك يا رب وأنت أعلم فغفر اللّه تعالى له »[٧] . =

(١) ذكره ابن الأثير فى غريب الحديث ، وابن منظور فى لسان العرب « فصل الباء » .
(٢) ذكره ابن الأثير فى غريب الحديث ، وابن منظور فى لسان العرب « فصل الباء » .
(٣) ذكره ابن الأثير فى غريب الحديث ، وابن منظور فى لسان العرب « فصل الباء » .
(٤) رواه البخارى [٦٦٠] ، ومسلم [١٠٣١/ ٩١] عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه .
(٥) رواه الترمذى [٢٤٩٦] عن ابن عمر رضى اللّه عنه ، والحاكم فى المستدرك [٤/ ٢٨٣] وقال الألباني : ضعيف .
(٦) رواه البخارى [٣٤٨١] ، ومسلم [٢٧٥٦/ ٢٥] .
(٧) رواه البخارى [٧٥٠٦] ، ومسلم [٢٧٥٦/ ٢٤] عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه .

يصيبها الخوف ، فهي تعانى من عدم الانسجام ، والخوف خَوَرٌ لا ضرورة

= وروى الترمذى والبيهقى مرفوعا : « يقول اللّه : أخرجوا من النار من ذكرني يوما أو خافني فى مقام »[١] .

وروى ابن حبان فى صحيحه فيما يروي صلى اللّه عليه وسلم عن ربه عز وجل أنه قال : « وعزتي وجلالي لا يجتمع على عبدي خوفان وأمنان إذا خافني فى الدنيا أمنته يوم القيامة ، وإذا أمنني فى الدنيا أخفته يوم القيامة »[٢] .

وروى البخارى والترمذى وغيرهما مرفوعا : « واللّه لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، وما تلذذتم بالنساء على الفراش ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى اللّه ، والله إنى لوددت أني شجرة تعضدُ »[٣] . والصعدات : الطرقات .

وروى أبو الشيخ مرفوعا : « كل من خاف اللّه عز وجل خوف اللّه منه كل شيء ، ومن لم يخف اللّه خوفه اللّه من كل شيء »[٤] . والله تعالى أعلم .

واعلم يا أخي أن أحدا لا يستغني عن الخوف ولا يسقط عنه ولو بلغ الغاية ما دام فى هذه الدار إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لعصمتهم ، وأما من عداهم فمن حقه الخوف حتى يضع قدمه فى الجنة لأنه من المقامات المستصحبة بعد الموت ، بخلاف نحو مقام التوبة والتقوى فإنه خاص بالحياة مدة التكليف .

وسمعت سيدي عليا الخواص رحمه اللّه يقول : إذا خافت الأمم كلها كان الأنبياء كلهم آمنين ، وإن وقع منهم خوف فإنما ذلك على أممهم .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يسلك به الطريق حتى يزيل حجبه الكثيفة المانعة له من الخوف ، فإن الإنسان كلما قرب من حضرة اللّه عز وجل استعظمه وخاف منه، وكلما بعد وحجب فبالعكس نظير ذلك فى الدنيا أصحاب حضرة السلطان، فترى عندهم من الخوف منه ومن سطوته ما ليس عند البعداء عن حضرته وربما شتمه هؤلاء ونقصوه بخلاف من كان من أهل حضرته ؟ وقد كان السلف الصالح كلهم على قدم الخوف حتى ماتوا لعلو مقامهم وقربهم من ربهم ، وخلفهم أقوام ليس عندهم من الخوف إلا الاسم ، فإن أعمالهم تكذب أقوالهم .

وقد كان الحسن البصري رضى اللّه عنه يقول : والله لقد أدركنا أقواما لو رأوكم لقالوا هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب .

ورأى شخص فى المنام مالك بن دينار فى الجنة فأتاه يبشره بذلك فقال له مالك أما وجد إبليس أحدا يسخر به غيري وغيرك ، وكانت السحابة إذا مرت عليه وهو يملي الحديث =

(١) رواه الترمذى [٢٥٩٤] عن أنس رضى اللّه تعالى عنه وقال الألباني : ضعيف .

(٢) رواه ابن حبان فى صحيحه [٦٤٠] عن أبى هريرة رضى اللّه عنه وقال الأرناؤوط : إسناده حسن .

(٣) رواه البخارى [٤٦٢١] ، ومسلم [٢٣٥٩/ ١٣٤] عن أنس بن مالك رضى اللّه تعالى عنه ، والترمذى [٢٣١٢، ٣٠٥٦] ، وابن ماجه [٤١٩٠] عن أبى ذر رضى اللّه تعالى عنه .

(٤) ذكره السيوطى فى الدر المنثور وعزاه لأبى الشيخ .

له ، لأنك إذا كنت تريد أن تؤمِّن نفسك من أمر يُخيفك ، فأنت تحتاج إلى

= يسكت ويرتعد ويقول اصبروا حتى تمر فإنى أخاف أن تكون فيها حجارة ترجمنا بها . وسألوه مرة أن يخرج معهم للاستسقاء ، فقال بالله عليكم اتركونى فإنى أخاف أن لا تسقوا بسببى .

وطلب جماعة من سيدى عبد العزيز الدرينى كرامة وقالوا مرادنا شىء يقوى يقيننا واعتقادنا فيك حتى نأخذ عنك الطريق ، فقال : يا أولادى وهل ثم كرامة من اللّه لعبدالعزيز أعظم من أن يمسك به الأرض ولم يخسفها به وقد استحق الخسف به من سنين ؟ فقال له شخص إن الخسف لا يكون إلا للكفار وأنتم من المؤمنين ، فقال قد خسف اللّه تعالى بشخص لبس حلة وتبختر فيها فى مكة ، كما فى البخارى عن ابن عباس ، وكم لعبدالعزيز من ذنب أعظم من التبختر .

وكان معروف الكرخي إذا استيقظ من منامه يمسح على وجهه بيده ويقول: الحمد لله الذى لم يغير صورتى فى صورة كلب أو خنزير لسوء أدبى .

وكان تلميذه السري السقطى ينظر إلى أنفه فى اليوم كذا مرة مخافة أن يكون قد اسود وجهه، وإنما خص الأنف بالنظر لكون الإنسان لا ينظر من وجهه غيره .

وكانت رابعة العدوية لا تنام الليل وتقول أخاف أن أؤخذ على بيات ؟؟ ، وكانت تنام وهى تمشى فى الدار ، فإذا قيل لها فى ذلك تنشد :

وكيف تنام العين وهى قريرة ولم تدر فى أي المنازل تنزل

وأحوال السلف الصالح فى الخوف كثيرة ومشهورة ، فطالع يا أخي فى مناقبهم ، وإياك والاقتداء بأهل هذا الزمان المتمشيخين بأنفسهم فإنك ربما هلكت .

وكان آخر الخائفين من الإخوان الذين أدركتهم الأخ الصالح الشيخ أبا الفضل الأحمدى رحمه اللّه تعالى . رأيت مرة قائلا يقول لى يا فلان ما صحبت فى عمرك مثل أبى الفضل ولا تصحب ، فحكيت ذلك له فارتمى إلى الأرض وصار يفحص بيديه ورجليه كالطير المذبوح ، فلما أفاق قال لى قتلتنى فى هذا النهار ، ومن أنا حتى تتكلم بى الهواتف؟ والله ما أظن إلا أن اللّه تعالى ينظر إلى نظر الغضب ليلا ونهارا ولكن أسأله بنبيه محمد صلى اللّه عليه وسلم أن يمن على بحسن الخاتمة والموت على التوحيد آمين .

وقد كان الإمام أبو بكر الصديق صاحب سيد الأولين والآخرين صلى اللّه عليه وسلم يقول : والله لوددت أن أكون شجرة تعضد ، فكيف بأمثالنا ؟

فاسلك يا أخي على يد شيخ حتى يخرجك من مواطن تلبيس النفس والشيطان وتصير تخاف من اللّه تعالى لتأمن من عذابه يوم القيامة ، فإن من خافه هنا أمن منه هناك وبالعكس ، وتأمل قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ . تعثر على جميع ما قلناه ، وذلك أن المتقى ما حشر إلى الرحمن الذى يعطى الرحمة إلا لكونه كان فى دار الدنيا جليس أسماء الخوف والانتقام ، ولذلك اتقى ربه ، ولو أنه كان جليس أسماء الحنان واللطف والمغفرة لما خاف وكان يقع فى كل محظور فافهم . والله تعالى أعلم . =

أن تجتهد بأسبابك لتعوق هذا الذى يُخيفك ، أما إن استسلمت للانزعاج ، فلن تستطيع مواجهة الأمر المخيف بكل ملكاتك ، لأنك ستواجهه ببعض من الملكات الخائرة المضطربة . بينما أنت تحتاج إلى استقرار الملكات النفسية ساعة الخوف ؛ حتى تستطيع أن تمد نفسك بما يؤمنك من هذا الخوف . أما إن زاد انزعاجك عن الحد ، فأنت بذلك تكون قد أعنت مصدر الخوف على نفسك ؛ لأنك لن تواجه الأمر بجميع قواك ، ولا بجميع تفكيرك .

إذن . . فالذى يخاف من الخوف ؛ نقول له : أنت مُعين لمصدر الخوف على نفسك ، وخوفك وانزعاجك لن يمنع الخوف ، ولذلك لابد لك من أن تنشغل بما يمنع الأمر المخوف ، ودع الأمر المخوف إلى أن يقع ، فلا تعش فى فزعه قبل أن يأتيك ، فآفة الناس أنهم يعيشون فى المصائب قبل وقوعها ، وهم بذلك يطيلون على أنفسهم أمد المصائب . إن المصيبة قد تأتى -مثلاً- بعد شهر ، فلماذا تطيل من عمر المصيبة بالتوجس منها والرهبة من مواجهتها ؟ إنك لو تركتها إلى أن تقع ؛ تكون قد قصرت مسافتها . ولك أن تعرف أن الحق سبحانه وتعالى ساعة تأتى المصيبة فهو برحمته يُنزِل معها اللطف ، فكأنك إن عشت فى المصيبة قبل أن تقع ، فأنت تعيش فى المصيبة وحدها معزولة عن اللطف المصاحب لها ، لكن لو ظللت صابرًا محتسبًا قادرًا على مواجهة أى أمر صعب ، فأنت لن تعيش فى المصيبة بدون اللطف .

= وجاء فى بستان العارفين للنووى :

قال التستري رحمه الله : فإن قيل : هل يسقط الخوف عن الأولياء ؟ .

قلنا : الغالب على الأكابر كان الخوف .

وذلك الذى تقدم على جهة الندرة [يعنى القلة] غير ممتنع .

وهذا السري السقطى رضى الله تعالى عنه يقول :

لو أن واحدا دخل بستاناً فيه أشجار كثيرة ، وعلى كل شجرة طير يقول له بلسان فصيح : السلام عليك يا ولى الله ! فلو لم يخف أنه مكر لكان ممكورا به . وأمثال هذا من حكاياتهم كثير .

قال : فإن قيل : هل يجوز أن يزايل الولى خوف المكر ؟ .

قلنا : إن كان مصطلحاً عن شاهده ، مختطفاً عن إحساسه بحاله ، فهو مستهلك عنه ، فيما استولى عليه والخوف من صفة الحاضرين بهم .

لقد كانت الدعوة إلى اللَّه بالإسلام ما زالت وليدة ، لذلك كان لابد من إعداد القدوة المؤمنة إعدادًا قويًا ، وكان الخوف متوقعًا ، لأن خصوم الدعوة يكيدون لها ويُبَيتون ، وهذا هو الابتلاء . وما المراد من المؤمن حين يواجه ابتلاء الخوف ؟ إن عليه أن يجعل من الخوف ذريعة لاستكمال الأسباب التى تمنع وقوع الأمر المخوف ، فإن صنع ذلك يكون قد نجح فى هذا الابتلاء .

ونأتى إلى الابتلاء الثانى فى هذه الآية الكريمة ، وهو الجوع . إن الجوع شهوة غالبة إلى الطعام ، وهو ضرورى لاستبقاء الحياة ، ومن رحمة الحق سبحانه وتعالى بالإنسان أن ضمن له فى ذاته غذاء يدخره من وقت رخائه لينفعه وقت شدته . فالإنسان يحتفظ بالغذاء الزائد على صورة شحم ولحم ، وحين يجوع ولا يجد طعامًا ، فهو يأخذ من هذا الشحم ، فإذا انتهى الشحم ، فهو يأخذ من اللحم ، وإذا انتهى اللحم ، يأخذ الجسم غذاءه من العظم ، من أجل أن يستبقى الإنسان الحياة .

ومن العجيب أنك تجد سيد الإنسان - وهو المخ - فى قمته ، والحيوانات كذلك مخها فى قمتها ، أما النبات فسيده فى جذوره ، فالورق يذبل أولاً ، ثم تجف الأغصان الرفيعة ، ثم الجذع ، ويجف الجذر فى النهاية عندما لا يأتيه بعض الماء ، وعندما يأتى بعض الماء إلى الجذور فى الوقت المناسب فهي تعود إلى الاخضرار ، وتنمو وتعود إليها الحياة ، وكذلك المخ فى الإنسان ، فساعة ينهى الإنسان مخزونه من شحمه ومن لحمه ويتغذى على العظام ، فإنقاذه يأتى من إيصال الغذاء إلى المخ .

ولذلك قالت المرأة العربية التى لم تكن تعرف التشريح : « نحن مرت علينا سنون ، سنة أذابت الشحم ، وسنة مَحَقَتْ اللحم ، وسنة محت العظم » .

ويجب أن نفهم أن الجوع يُحسِّن لنا كل رزق فى الحياة ؛ فإنك إن كنت جوعان صار كل طعام شهيًا ، والذى يرغم الناس على إعداد ألوان مختلفة من الأطعمة ؛ إنما هو عدم الجوع ؛ فالإنسان يريد أن يُشهِّى لنفسه ليأكل ، لكنه لو كان جوعان لكفاه أي طعام ، ولذلك قالوا : « طعام الجائع

هنيء وفراش المتعب وطيء » . فساعة يكون الإنسان متعبًا فهو ينام على أرض خشنة ؛ ويستغرق فى النوم ، وإن لم يكن الإنسان متعبًا فهو يظل يتقلب فى الفراش حتى ولو كانت من الديباج .

إذن . . فابتلاء الجوع[١] هو أن تصبر على الضرورى من الطعام الذى يقيم

---

(١) ولذلك كان يتعوذ منه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه قال : كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئس البطانة »[١] .

وفى الحديث : إن أهل الجوع فى الدنيا هم أهل الشبع فى الآخرة غداً[٢] .

أخرجه الطبرانى وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عباس رضى اللّه تعالى عنه بإسناد ضعيف .

وفى الحديث : « من شبع ونام قسا قلبه »[٣] ثم قال : « إن لكل شىء زكاة وإن زكاة الجسد الجوع »[٤] . أخرجه ابن ماجه من حديث أبى هريرة « لكل شىء زكاة وزكاة الجسد الصوم »[٥] وإسناده ضعيف .

١ - وفى الحديث « نور الحكمة الجوع والتباعد من اللّه عز وجل الشبع ، والقربة إلى اللّه عز وجل حب المساكين والدنو منهم . لا تشبعوا فتطفئوا نور الحكمة من قلوبكم ومن بات فى خفة من الطعام بات الحور حوله حتى يصبح »[٦] .

ذكره أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة وكتب عليه إنه مسند وهى علامة ما رواه بإسناده .

وعن عمران بن حصين رضى اللّه تعالى عنه قال : كانت لى من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم منزلة وجاه فقال : « يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاها فهل لك فى عيادة فاطمة بنت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ؟ » فقلت : نعم بأبى أنت وأمى يا رسول اللّه ، فقام وقمت معه حتى وقفت بباب منزل فاطمة فقرع الباب وقال : « السلام عليكم أأدخل » =

---

(١) رواه أبو داود [١٥٤٧] ، والنسائى فى المجتبى [٨/ ٢٦٣/ ٥٤٦٨] ، وابن ماجه [٣٣٥٤] وقال الألبانى : حسن .

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير [١١/ ٢١٣/ ١١٦٩٣] عن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما ، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد [١٠/ ٢٥٣] وقال : وفيه يحيى بن سليمان الحضرى ، ذكره الذهبى فى الميزان وقال : لم أر به بأسا وبقية رجاله ثقات .

(٣) ذكره العراقى فى تخريج أحاديث الأحياء ، كتاب رياضة النفس [٣] .

(٤) ذكره العراقى فى تخريج أحاديث الأحياء ، كتاب رياضة النفس [٣] .

(٥) رواه ابن ماجه [١٧٤٥] وقال الألبانى : ضعيف .

(٦) ذكره العراقى فى تخريج أحاديث الأحياء ، كتاب رياضة النفس [١] .

obeikandi.com

لك الحياة ، وأنت تأكله كوقود لحركة الحياة ، ولا تأكله التذاذًا ، وحين يقتات الإنسان ليضمن لنفسه وقود الحياة فأى طعام يكفيه . ولذلك شرع اللّه الصوم لنصبر على أذى الجوع ، لأن المؤمنين قد تضطرهم معركة ما لأن يعيشوا فيها ساعات طويلة بدون طعام ، فإن لم يكونوا مدربين على تحمل قسط من الجوع فسيخرون ويتعبون .

إذن . . فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يعد المؤمن إعدادًا كافيًا كاملاً ، فالمؤمن يواجه الخوف فيستعد ، ويواجه الجوع فيأخذ من قوت الحياة بقدر الضرورة .

ولذلك تجد أن المجتمعات تواجه متاعب الاقتصاد بالتقشف ، ولكن بعض المجتمعات لا تستطيع ذلك ، فتجد الناس فى تلك المجتمعات

= فقالت : أدخل يا رسول اللّه . قال : « أنا ومن معى ؟ » قالت : ومن معك يا رسول اللّه ؟ فقال : « عمران بن حصين » فقالت : والذى بعثك بالحق نبيا ما على إلا عباءة ! فقال ، اصنعى بها هكذا وهكذا » وأشار بيده ، فقالت : هذا جسدى فقد واريته ، فكيف برأسى ؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال : « شدى بها على رأسك » ثم أذنت له فدخل ، فقال : « السلام عليك يا بنتاه كيف أصبحت . » قالت : أصبحت والله وجعة وزادنى وجعا على ما بى أنى لست أقدر على طعام آكله ، فقد أجهدنى الجوع ، فبكى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقال : « لا تجزعى يا بنتاه فوالله ما ذقت طعاما منذ ثلاثة ، وأنى لأكرم على اللّه منك ولو سألت ربى لأطعمنى ، ولكنى آثرت الآخرة على الدنيا ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها : « أبشري فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة » فقالت : فأين آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران ؟ فقال : « آسية سيدة نساء عالمها ، ومريم سيدة نساء عالمها ، وخديجة سيدة نساء عالمها ، وأنت سيدة نساء عالمك ، إنكن فى بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب » ثم قال لها : « اقنعى بابن عمك فوالله لقد زوجتك سيدا فى الدنيا سيدا فى الآخرة » [(١)] .

الحديث بطوله وفيه : « لقد زوجتك سيدا فى الدنيا وسيدا فى الآخرة » لم أجده من حديث عمران . ولأحمد والطبرانى من حديث معقل بن يسار : وضأت النبى صلى اللّه عليه وسلم ذات يوم فقال : «هل لك فى فاطمة تعودها . . . الحديث » وفيه : « أما ترضين أن زَوّجْتُكِ أقدم أمتى سلما ، وأكثرهم علما ، وأعظمهم حلما ؟ » وإسناده صحيح [(٢)] .

---

(١) ذكره العراقى فى تخريج أحاديث الأحياء ، كتاب ذم البخل [١] .

(٢) رواه أحمد فى المسند [٥/ ٢٦] وقال الأرناؤوط : ضعيف ، والطبرانى فى الكبير [٢٠/ ٢٣٠/ ٥٣٨] ، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد [٩/ ١٠٤] وقال : رواه أحمد والطبرانى ، وفيه خالد بن طهمان وثقه أبو حاتم وغيره ، وبقية رجاله ثقات .

لا تتقشف ، ولهذا نقول لمن يعيش حياة الترف : أنت لا تعد نفسك الإعداد اللازم لمواجهة تقلبات الزمن .

وأقول كما قال إبراهيم بن أدهم :

وإذا غـلا شـيء عـلـيَّ تـركـتـه فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

إن أي شيء إذا غلا سعره ، لا يشتريه ، ويتركه ، فيكون أرخص شيء ، لأنه لن يدفع فيه مالاً ليشتريه .

وأما الابتلاء الثالث وهو نقص الأموال فمصدره أن المؤمنين سينشغلون عن حياتهم بأمر الدعوة ، وإذا ما شغلوا عن حركة الحياة لمواجهة العدو فسيضطرون إلى التضحية بحركة الحياة التى تنتج المال ولذلك تنقص الأموال ، لأن حركتهم فى الحياة توجهت إلى مقاومة خصوم اللّه . وكذلك سيواجهون العدو مقاتلين ؛ وقد يستشهد منهم عدد . وأخيرًا يواجهون نقص الثمرات ، والثمرات هى الغاية من كل عمل .

والحق سبحانه وتعالى حين يعدُّنا هذا الإعداد ، فإذا نجحنا فيه تكون لنا البشرى ، لأننا صبرنا على كل هذه المنغصات .

صبر على الجوع ، وصبر على نقص الأموال ، وصبر على نقص الأنفس ، وصبر على نقص الثمرات .

إذن . . فالمهم أن ينجح المؤمن فى كل هذه الابتلاءات ؛ حتى يواجه الحياة صلبًا ؛ ويواجه الحياة قويًا . ويعلم أن الحياة معبر ، ولا يشغله المعبر عن الغاية ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٦] .

والمصيبة : هى الأمر الذى ينال الإنسان منه المشقة والألم ، وهى مأخوذة من إصابة الهدف . والمؤمن يستقبل المصيبة واثقًا أنها على قدر إيلامها يكون الثواب عليها ، ولذلك عندما فرح الكفار بما يصيب المسلمين فى بعض المعارك ، أنزل اللّه ذلك القول الحق للمؤمنين : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة : ٥١] .

أى : قولوا أيها المؤمنون لهؤلاء الحمقى من الكافرين : إنه لن يحدث لنا إلا ما كتبه اللّه .

تبرؤ المتبوعين من الأتباع

السؤال : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ ﴾ **يتبرأ هؤلاء من هؤلاء فما معني هذا ؟ وما العبرة منه ؟**

الجواب : يبين الحق سبحانه وتعالى ماذا سيكون حالهم عندما يرون العذاب ، فيقول : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ [البقرة : ١٦٦] .

إن كل من زيّن الكفر والعصيان لغيره سيتبرأ من كل من زَيَّنَ لهم معصية اللّه والشرك به ، حتى الشيطان - العُمدة في إغوائهم سيتبرأ منهم - وسيقول ساعتها :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ﴾ [إبراهيم : ٢٢] .

فلن يستطيع الشيطان أن ينقذ أحدًا من المشركين ، ولن يصرخ فيأتى له المشركون لإنقاذه ، وإن صرخ المشركون ؛ فلن يأتى لهم الشيطان لينقذهم ، وسيتبرأ كل منهم من الآخر ، وسيتبرأ الكافرون من كل من زينوا لهم الشرك باللّه ، أو سيقول الكافرون لمن زينوا لهم الشرك باللّه : « نحن أبرياء منكم ولا علاقة لنا بكم » . وجاءت الآية بالذين اتُّبعوا أولاً لأنهم المفتون فيهم ، ثم جاءت بالذين اتَّبَعُوا من بعد ذلك ، لإنهم يرون العذاب وتتقطع بهم الأسباب ، وأصبحت كل نفس بما كسبت رهينة ، والشيطان نفسه يعترف بأنه لم يكن صاحب سلطان إلا بأن دعاهم ، فمن استجاب له جيء به إلى هذا المصير ، والسلطان إما أن يكون سلطان حُجة ، وإما سلطان قهر ، ولم يكن للشيطان سلطان قهر على الكافرين ، ولم يكن له إلا عمل واحد بلا سلطان ، وهو أن دعاهم إلى الشرك باللّه ؛ فاستجابوا له .

openkanal.com

فماذا يحدث عندما تتقطع بهم الأسباب ؟ إن الحق سبحانه يقول : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ١٦٧] .

إن تبرؤ الذين اتَّبَعُوا من الذين اتُّبِعُوا لن ينفعهم ، وتمنيهم أن تكون لهم كرّة - أي عودة - ليتبرؤوا منهم لن يجدى ، ويُريهم اللّه أعمالهم -التى سبقت- حسرات عليهم . ولا تكون الحسرة إلا إذا أصيب الإنسان بمصيبة لا منأى من النجاة منها ، ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ أى : لن ينفعهم ندمهم على ما سبق من أعمالهم السيئة ، ولن يجدى هذا الندم فى إخراجهم من النار .

obeikandl.com

مثل الذين
لا يؤمنون بدعوة الرسول ..!

السؤال : ما معنى قول الله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ؟

الجواب : الذى ينعق هو الذى يُصَوِّتُ ويصرخ للبهائم ، وهو الراعى ، وهذا الصياح من الراعى ليلفت الماشية المرعية لتسير خلفه ، وهو لا يقول لها ما يريد أن تفعله ، وإنما ينبهها بالصوت إلى ما يريد ، ويسير أمامها لتسير خلفه إلى المرعى أو إلى نبع الماء ، فالنداء لفتة ودعاء فقط ، لكن ما يراد من الدعاء يصير أمرًا حركيًا تراه الماشية . فكأن الماشية المرعية لا تفهم من الراعى إلا النداء والدعاء ، إنما دعاء ونداء لماذا ؟ فهي لا تعرف الهدف منه ، إلا بأن يسلك الراعى أمامها بما يرشدها .

إذن . . نفهم أن هناك « راعيًا » ، و « ماشية » ، و « صوتًا من الراعى » وهو مجرد دعاء ونداء . مقابل هؤلاء الثلاثة فى قضيتنا هو الرسول حين دعا فيكون هو « الراعى » ويدعو من ؟ ، يدعو « الرعية » الذين هم الناس .

وبماذا يدعو الرعية ؟ أيناديها فقط لتأتيه ، أم يناديها لتأتيه ويأمرها بأشياء ؟ .

إنه يأمرها باتباع منهج السماء . وهذا هو الفارق بين الراعى فى الماشية والراعى فى البشر .

فعندما يأتى الرسول ويقول : يا قوم إنى لكم رسول ، وإني لكم نذير ، فهذا هو الدعاء ، ومضمون ذلك الدعاء هو « اعبدوا الله »[1] .

---

(١) ذكر الهيثمي فى مجمع الزوائد [٩/ ٢٧-٢٨] عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : نعي إلينا حبيبنا ونبينا بأبي هو ونفسي له الفداء قبل موته بست ، فلما دنا الفراق=

« انظروا فى السماوات والأرض » ، « افعلوا كذا من أوامر وانتهوا عن تلك النواهى » ، هذا ما يريده الرسول .

= جمعنا فى بيت أمنا عائشة فنظر إلينا فدمعت عيناه ثم قال : « مرحباً بكم وحياكم الله ، وحفظكم الله ، آواكم الله ، ونصركم الله ، هداكم الله ، رزقكم الله ، وفقكم الله ، سلمكم الله ، قبلكم الله ، أوصيكم بتقوى الله وأوصي الله بكم وأستخلفه عليكم إني لكم نذير مبين أن لا تعلوا على الله فى عباده وبلاده فإن الله قال لي ولكم : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وقال : ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ . ثم قال : « قد دنا الأجل ، والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى وإلى جنة المأوى والكأس الأوفى والرفيق الأعلى » . أحسبه قال : فقلنا : يا رسول الله فمن يغسلك إذا ؟ قال : « رجال أهل بيتي الأدنى فالأدنى » . قلنا : ففيم نكفنك ؟ قال : « في ثيابي هذه - إن شئتم - أو فى حلة يمنية أو فى بياض مضر »

قال : فقلنا : فمن يصلي عليك منا ؟ فبكينا وبكى وقال : « مهلاً غفر الله لكم وجازاكم عن نبيكم خيرا إذا غسلتموني ووضعتموني على سريري فى بيتي هذا على شفير قبري فاخرجوا عني ساعة فإن أول من يصلي علي خليلي وجليسي جبريل صلى الله عليه وسلم ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت مع جنوده ثم الملائكة صلى الله عليهم بأجمعها ، ثم ادخلوا علي فوجاً فوجاً، فصلوا علي وسلموا تسليماً ، ولا تؤذوني بباكية - أحسبه قال : - ولا صارخة ولا رانة ، وليبدأ بالصلاة علي رجال أهل بيتي ثم أنتم بعد، وأقرئوا أنفسكم مني السلام ، ومن غاب من إخواني فأقرئوه مني السلام ، ومن دخل معكم فى دينكم بعدي فإني أشهدكم أني أقرأ السلام - أحسبه قال : - عليه وعلى كل من تابعني على ديني من يومي هذا إلى يوم القيامة » . قلنا : يا رسول الله فمن يدخلك قبرك منا ؟ قال : « رجال أهل بيتي مع ملائكة كثيرة يرونكم من حيث لا ترونهم » . وقال : رواه البزار وقال : روي هذا عن مرة عن عبد الله من غير وجه ، والأسانيد عن مرة متقاربة وعبد الرحمن لم يسمع هذا من مرة إنما أخبره عن مرة ، ولا نعلم رواه عن عبد الله غير مرة ، قلت : رجاله رجال الصحيح غير محمد بن إسماعيل ابن سمرة الأحمسي وهو ثقة . ورواه الطبراني فى الأوسط [٤/٢٠٨/٣٩٩٦] بنحوه إلا أنه قال : قبل موته بشهر . وذكر فى إسناده ضعفاء منهم أشعث بن طابق قال الأزدى : لا يصح حديثه . والله أعلم .

هذا وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن قوله عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ فما العبادة وفروعها وهل مجموع الدين داخل فيها أم لا وما حقيقة العبودية وهل هي أعلا المقامات فى الدنيا والآخرة أم فوقها شيء من المقامات وليبسطوا لنا القول فى ذلك ؟

فأجاب : الحمد لله رب العالمين العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الامانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر=

إذن . . فالرسول يشترك مع الراعى فى الدعاء والنداء ، وهم اشتركوا

= والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان الى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة .

وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته ، والخوف لعذابه وأمثال ذلك هي من العبادة لله .

وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التى خلق الخلق لها كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] وبها أرسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٥٩] وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ [النحل : ٣٦] وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ كما قال فى الآية الاخرى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون : ٥١] وجعل ذلك لازما لرسوله الى الموت قال : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر : ٩٩] وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه فقال تعالى :

﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنبياء] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ وذم المستكبرين عنها بقوله : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ ونعت صفوة خلقه بالعبودية له فقال تعالى : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ وقال : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ الآيات ، ولما قال الشيطان : ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ وقال فى وصف الملائكة بذلك : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [مريم] ، وقال تعالى عن المسيح الذى ادعيت فيه الالهية والنبوة : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ . =

مع المَرْعِىّ فى أنهم لم يفهموا إلا الدعاء والنداء فقط ، وفى الاستجابة هم

= ولهذا قال النبى صلى اللّه عليه وسلم فى الحديث الصحيح : لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد اللّه ورسوله (١) .

وقد نعته اللّه بالعبودية فى أكمل أحواله فقال فى الاسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ وقال فى الإيحاء : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ وقال فى الدعوة : ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ وقال فى التحدى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ فالدين كله داخل فى العبادة .

وقد ثبت فى الصحيح أن جبريل لما جاء الى النبى فى صورة أعرابى وسأله عن الاسلام قال : أن تشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت اليه سبيلا . قال فما الايمان ؟ قال : ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره .

قال فما الإحسان ؟ قال : أن تعبد اللّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

ثم قال فى آخر الحديث : هذا جبريل جاءكم يعلمكم دنيكم (٢) فجعل هذا كله من الدين و الدين يتضمن معنى : الخضوع والذل ، يقال : دنته فدان أى : ذللته فذل .

ويقال : يدين اللّه ، ويدين لله ، أى : يعبد اللّه ويطيعه ويخضع له . فدين اللّه عبادته وطاعته والخضوع له .

والعبادة أصل معناها الذل أيضا ، يقال : طريق معبد إذا كان مذللا قد وطئته الأقدام لكن العبادة المأمور بها : تتضمن معنى الذل ومعنى الحب فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له فإن آخر مراتب الحب هوالتتيم وأوله العلاقة لتعلق القلب بالمحبوب ثم الصبابة لانصباب القلب إليه ثم الغرام وهو الحب اللازم للقلب ثم العشق وآخرها التتيم .

يقال : تيم اللّه ، أى : عبد اللّه ، فالمتيم المعبد لمحبوبه ومن خضع لإنسان مع بغضه له لايكون عابدا له ولو أحب شيئا ولم يخضع له لم يكن عابدا له كما قد يحب ولده وصديقه ولهذا لا يكفي أحدهما فى عبادة اللّه تعالى بل يجب أن يكون اللّه أحب إلى العبد من كل شىء وأن يكون اللّه أعظم عنده من كل شىء بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا اللّه وكل ما أحب لغير اللّه فمحبته فاسدة وما عظم بغير أمر اللّه كان تعظيمه باطلا ، قال اللّه تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ بأمره فجنس المحبة تكون لله ورسوله كالطاعة فإن الطاعة لله ورسوله والإرضاء =

(١) رواه البخارى [٦٨٣٠] ، والدارمى فى سننه [٢/ ٤١٢] ، وأبو داود الطيالسى [١/ ٦] ، وابن حبان فى صحيحه [٤١٣] .

(٢) رواه مسلم [١٠/ ٧] .

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾ ، فالمدعو به لم يسمعوه ، وكأنهم اشتركوا مع الحيوان فى أنهم لا يستمعون إلا للدعاء والنداء ، إنما المدعو به ومضمون النداء هم لا يعقلونه ولا يفهمونه ، وبُكْمٌ لا ينطقون بمطلوب الدعوة وهو : « شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدًا رسول اللّه » ، وليس عندهم عقل يدير حركة العيون لينظروا فى ملكوت السماوات والأرض ليظهر لهم وجه الحق فى هذه المسألة .

إذن . . فمثل الذين كفروا بالرسول كمثل الماشية مع الراعى ، فهم لا يسمعون إلا مجرد الدعاء ، كما أن الماشية تسمع الراعى ولا تعقل ، مع الفارق ؛ لأن الدواب ليس مطلوبًا منها أن ترد على من يناديها . ولا تسمع غير ذلك من المدعو به لذا كان الكافرون شرًّا من الدواب .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ صُمٌّ ﴾ أى : مصابون بالصمم ؛

= لله ورسوله ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ والإيتاء لله ورسوله ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ .

وأما العبادة وما يناسبها من التوكل والخوف ونحو ذلك فلا يكون إلا لله وحده كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ - الى قوله - : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ فالايتاء لله والرسول كقوله : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ .

وأما الحسب وهو الكافي فهوالله وحده كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : حسبك وحسب من اتبعك اللّه ومن ظن أن المعنى حسبك اللّه والمؤمنون معه فقد غلط غلطا فاحشا كما قد بسطناه فى غير هذا الموضع .

وقال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ ﴾ تحرير ذلك ان العبد يراد به المعبد الذى عبده اللّه فذلله ودبره وصرفه ، وبهذا الاعتبار : فالمخلوقون كلهم عباد اللّه من الأبرار والفجار والمؤمنين والكفار وأهل الجنة وأهل النار إذ هو ربهم كلهم ومليكهم لا يخرجون عن مشيئته وقدرته وكلماته التامات التى لا يجاوزهن برولا فاجر، فما شاء كان وان لم يشأوا ، وما شاؤا إن لم يشأه لم يكن ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ فهو سبحانه رب العالمين ، وخالقهم ، ورازقهم ، ومحييهم ، ومميتهم ، ومقلب قلوبهم ، ومصرف أمورهم لا رب لهم غيره ، ولا مالك لهم سواه ، ولا خالق الا هو .

obeikandl.com

وهى : آفة تمنع الأذن من أداء مهمتها . و ﴿ بُكْمٌ ﴾ أى : مصابون بآفة تصيب اللسان ؛ فتمنعه من أداء مهمته ، إلا أن السبب فى الصمم سبب إيجابى ، لأن هناك شيئًا قد سَد منفذ السمع فلا تسمع ، وبسبب الصمم فهم بكم ، والبكم هو عجز اللسان عن الكلام ، لأن الإنسان إن لم يسمع فهو لن يتكلم . ولذلك فإن الإنسان إذا وُجد فى بيئة عربية فهو يتكلم اللغة العربية ، وإذا نشأ الإنسان فى بيئة إنجليزية فهو يتكلم لغة إنجليزية . وهبْ أنك قد نشأت فى بيئة تتكلم العربية ثم لم تسمع كلمة من كلماتها هل تتكلم بها ؟ بالطبع لا .

إذن . . فاللسان ينطق بما تسمعه الأذن ، فإذا لم تسمع الأذن لا ينطق اللسان . والصمم يسبق البكم ، ولذلك فالبكم هو آفة سلبية ، وتجد أن اللسان يتحرك ويُصوّت أصواتًا لا مدلول لها ولا مفهوم . فهل نفهم من قوله تعالى عنهم : ﴿ صُمٌّ ﴾ أنهم مصابون بالصمم ؟ لا . إن الحق يقول : لقد جعلت الأذن لتسمع السماع المفيد ؛ فكأنها معطلة لا تسمع شيئًا . وكذلك اللسان أوجدته ليتكلم الكلام المفيد ، بحيث من لا يتكلم به كأنه أبكم ، والعقل أوجدته ليفكر به ؛ فإذا لم يفكر تفكيرًا سليمًا منطقيًا ، فكأن صاحبه لا عقل له . فالأصم حقيقة خير من الذى يملك حاسة السمع ولا يفهم بها ، لأن الأصم له عذره ، والأبكم كذلك ، والمجنون أيضًا له عذره ، فليت هؤلاء الكفار كانوا كذلك ، لقد صموا آذانهم عن سماع الدعوة ، وهم بُكم عن النطق بما ينجيهم وهو : شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدًا رسول اللّه ؛ والعمل بمقتضاها .

تحرّى الحلال .. ورفض الرشوة

السؤال : كيف يأكل العباد أموالهم بالباطل ؟ وما السبيل إلى كف الناس عن هذا الخلق الذميم ؟

الجواب : يقول اللّه تبارك وتعالى ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٨] .

إن الأمر هنا للجميع ، والأموال مضافة للجميع ، فالمال ساعة يكون ملكًا لى ، فهو فى الوقت نفسه يكون مالاً ينتفع به الغير .

إذن .. فهو أمر شائع عند الجميع ، لكن ما الذى يحكم حركة تداوله ؟ إن الذى يحكم حركة تداوله هو الحق الثابت الذى لا يتغير ، ولا يحكمه الباطل . وما معنى الباطل ، والحق ؟ إن الباطل هو الزائل ، وهو الذى لا يدوم ، وهو الذاهب . والحق هو الثابت الذى لا يتغير فلا تأكل بالباطل ، أى : لا تأكل مما يملكه غيرك إلا بحق أثبته اللّه بحكم : فلا تسرق ، ولا تغتصب ، ولا تخطف ، ولا ترتش ، ولا تكن خائنًا فى الأمانة التى أنت موكل بها ، فكل ذلك إن حدث تكن قد أكلت المال بالباطل .

وحين تأكل بالباطل فلن تستطيع أنت شخصيًا أن تعفي غيرك مما أبحته لنفسك ، وسيأكل غيرك بالباطل أيضًا . وما دمت تأكل بالباطل وغيرك يأكل بالباطل ، هنا يصير الناس جميعًا نهبًا للناس جميعًا . لكن حين يُحكَم الإنسان بقضية الحق فأنت لا تأخذ إلا بالحق ، ويجب على الغير ألا يعطيك إلا بالحق ، وبذلك تخضع حركة الحياة كلها لقانون ينظم الحق الثابت الذى لا يتغير ، لماذا ؟ لأن الباطل قد يكون له علو ، لكن ليس له استقرار ، فالحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ

﴿وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد : ١٧] .

وساعة ترى مطرًا ينزل فى مسيلٍ ووادٍ ، فأنت تجد هذا المطر قد كنس كل القش والقاذورات وجرفها فطفت فوق الماء ولها رغوة ، وكذلك فأنت عندما تدخل الحديد فى النار تجده يسيل ويخرج منه الخبث ، ويطفو الخبث فوق السطح ، وهكذا نجد أن طفو الشىء وعلوه على السطح لا يعنى أنه حق ، إنه سبحانه يعطينا من الأمور المُحسة ما نستطيع أن نميز من خلاله الأمور المعنوية[١] .

❁ ❁ ❁

(١) روى أحمد فى مسنده [٢/ ٢١٢] عن عبد الله بن عمرو رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعنة الله على الراشي والمرتشى » ، وابن حبان [٥٠٧٧] بلفظ : « لعن الله الراشي والمرتشى » . وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح ، وقال الأرناؤوط : إسناده قوى ، رجاله ثقات رجال الشيخين .

obeikandl.com

يسألونك عن الأهلة

السـؤال : **ما سبب سؤال المشركين للرسول صلى اللّه عليه وسلم عن الأهلة ؟ وما هي الدروس المستفادة التى أراد اللّه سبحانه أن يعلمنا إياها من هذا السؤال ؟**

الجـواب : هذا السؤال سجله القرآن فى قوله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٩] .

الأهلة جمع هلال ، وسمى هلالاً لأن الإنسان ساعة يراه يهل ، أي يرفع صوته بالتهليل . ويجيب الحق سبحانه وتعالى الجـواب الذى يحمل كل التفاصيل عن القمر ، وهو الكوكب الذى خضع لنشاطات العقل حتى يكتشفه ، والعرب القدامى لم يكونوا يعلمون شيئًا عن ذلك القمر ، ولكنهم كانوا يؤرخون به ، وعلمهم به لم يزد على حدود انتفاعهم به . ولم يصلوا إلى الترف العقلى الذى يتأملون به آيات اللّه فى الكون ، فكل آيات الكون يُنتفع بها ثم ينشط العقل بعد ذلك ، فنعرف السبب ، وقد لا ينشط العقل فتظل الفائدة هي الفائدة .

وأراد الحق سبحانه أن يلفتنا لمبدأ مهم ، وهو أن يعلمنا كيف نستفيد من الآيات الكونية مثل القمر ، لا يكفي ظهوره واختفاؤه ، وتغير حجمه ، لأن هذه لن يتسع لها العقل ، بل نستفيد منه كميقات ، ونستخدمه لقياس الزمن . فإذا كنا ونحن نعيش فى القرن العشرين ، لم يعرف العلماء سببًا لظواهر القمر ، فكيف كان حال الذين سألوا عنها منذ أربعة عشر قرنًا ؟

قال العلماء المعاصرون فى تفسيراتهم مثلاً : إن الشمس مثل حجم الأرض مليونا وربع مليون مرة ، والقمر أصغر من الأرض ، وعندما تأتى

الأرض بين الشمس والقمر برغم حجم الشمس الهائل فإن الأرض تحجب جزءًا من القمر ، هذا الجزء المحجوب بقدر تدوير القوس المحجوب من الأرض ويصبح هذا الجزء من القمر مظلمًا .

إن القمر وجوده ثابت لكن الأرض عندما توجد بينه وبين الشمس فهي التى تحجب عنه ضوء الشمس ، ويكبر حجم نوره كلما تزحزحت الأرض بعيدًا عنه . وعندما تنزاح الأرض بعيدًا عنه كلية يظهر فى السماء بدرًا كاملاً ، ثم تعود الأرض بعد ذلك لتحجب عنه جزءًا من الشمس ، ويزداد ذلك يومًا بعد يوم ، فينقص ضوء الشمس المنعكس عليه تبعًا لذلك ، فيقل تدريجيًا حتى تأتى الأرض بينه وبين الشمس فلا يظهر منه شىء .

ونقول نحن : إننا عندما لا نرى القمر لا فى الليل ولا فى النهار برغم أنه موجود فى مكانه ، نقول : إنه مستور فى ظل الأرض ، لذلك لا نراه . وهذه الظاهرة لا تحدث للشمس لأن جرم الشمس كبير جدًا . وعندما يحدث فإن الأثر يكون قليلاً ، ويسمى بالكسوف .

وعندما التفت العرب للكون قالوا : ما بال الهلال يصبح هكذا ثم يكبر حتى يصير بدرًا ، فقال الحق عز وجل : ﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ إنهم هم يسألون عن الأهلة ودورتها ، فقطع اللّه عليهم خيط تفكيرهم وأعطاهم الخلاصة والنتيجة ، فقال : ﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ . إن هذا الأمر هو الذى يستطيع العقل فى ذلك الزمان أن يعرفه ، أما ما وراء ذلك فانتظروا حتى يكشف الزمن عنه ، وجهلكم به لا يقلل من نفعكم .

لقد كانت كل إجابة لأى سؤال فى ذلك الزمان تحتوى على ما يتسع العقل لإدراكه ساعة التشريع ، أما بقية الإجابة فالحق يتركها للزمن . ولا يعطينا إلا ما يفيد التشريع ، مثال ذلك : كانوا قديمًا يقولون : الأرض كرة وأثبت لنا العلم أنها كذلك ، ورأيناها بالأقمار الصناعية وانتهت القضية .

وعندما سأل العرب عن الأهلة أخبرنا الحق بأنها مواقيت ، والمواقيت جمع ميقات ، والميقات من الوقت ، والوقت هو الزمن ، ونعرف أن كل حدث من الأحداث يحتاج إلى زمن وإلى مكان . إذن فالزمان والمكان مرتبطان بالحدث ، فلا يوجد زمان ولا مكان إلا إذا وجد حدث .

والذى يقول : كيف كان الزمن قبل أن يخلق اللَّه الخلق ؟ نقول له : الزمن وُجد للحادث وهو المخلوقات واللَّه قديم ، وما دام اللَّه قديمًا وليس حادثًا فلا زمان ولا مكان ، لا تقل متى ولا أين ؛ لأن متى وأين مخلوقة ؟! وكيف نعرف الوقت ؟ نحن نعرف الوقت بأنه مقدار من الزمن ، لمقدار من الحركة ولمقدار من الفعل .

وأين المكان فى هذا التعريف ؟ إن الزمان يتحكم أحيانًا فى المكان ، فيكون الزمان هو الأصل ، والمكان طارئ عليه ، ومرة أخرى يكون المكان هو الأصل ، والزمان هو الطارئ عليه ، ومرة ثالثة يتلازم الإثنان : الزمان والمكان .

ونحن فى مصر إذا أردنا الحج فإننا نبدأ الإحرام عند رابغ ، ونُسمى رابغ ميقات أهل مصر أى : هو المكان الذى لا يتجاوزه حاج مصري يمر عليه إلا وهو محرم .

إذن . . فالميقات قد أطلق على مكان هو رابغ ، ومن فور وصول الإنسان المصرى إلى رابغ بغية الحج يحرم ، سواء كان الوقت صباحًا أو ظهرًا أو عصرًا أو مغربًا .

ولكن عندما نبدأ فى الصوم فإن الزمن يصبح هو الأصل فى صومك فى أي مكان تذهب إليه ، إن الزمان هو الذى يحدد مواعيد الصوم : فى طنطا أو لندن أو فى طوكيو ، وهكذا نعرف كيف يكون الزمن ميقاتًا .

إذن . . فمرة يكون الزمن هو المتحكم فى الميقات والمكان طارئ عليه ، ومرة يكون المكان هو الذى يتحكم فى الميقات ، والزمن طارئ عليه ، ومرة يتحكم الزمان والمكان معًا فى الفعل مثل يوم عرفة .

وهكذا نعرف معنى : ﴿ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾ ، فنحن بالهلال نعرف بدء شهر رمضان ، ونعرف به عيد الفطر ، وكذلك موسم الحج وعدة المرأة ، والأشهر الحرم ، إن كل هذه الأمور إنما نعرفها بالمواقيت . وشاء الحق أن يجعل الهلال هو أسلوب تعريفنا تلك الأمور وجعل الشمس لتدلنا على اليوم فقط ، وإن كان لها عمل آخر فى البروج ، التى يتعلق بها حالة الطقس والجو والزراعة .

الأمر بالقتال .. وعدم الاعتداء

السؤال : **اللّه تعالى أمرنا بالقتال ؛ وأمر بعدم الاعتداء فيقول تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ فهل من توضيح لذلك ؟**

الجواب : كان من الممكن أن ينصر اللّه دينه من أول وهلة بدون تدخل من المسلمين ، وكان معنى ذلك أن الناس سيتساوون فى الإيمان أولهم وآخرهم ، ولكن شاءت إرادته سبحانه وتعالى أن يجعل لهذا الدين رجالاً يفدونه بأرواحهم وأموالهم لينالوا الشهادة ويرتفعوا إلى مصاف النبيين . لذلك جاء الأمر بالقتال متأخرًا وبالتدريج ؛ لقد جاء الأمر بالقتال فى أول مرحلة وذلك فى قول اللّه تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

وسبب نزول هذه الآية أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم اشتاق هو وصحابته إلى البيت الحرام ، وفى ذى القعدة من السنة السادسة من الهجرة أرادوا أن يؤدوا العمرة ؛ وفى الطريق إلى مكة وعند الحديبية وقفت أمامهم قريش وقالت : لا يمكن أن يدخل محمدٌ وأصحابه مكة ؛ وقامت مفاوضات بين الطرفين ، ورضى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بعدها أن يرجع هذا العام على أن يأتى فى العام القادم ، وتُخلى لهم مكة ثلاثة أيام فى شهر ذى القعدة .

وكان الرسول صلى اللّه عليه وسلم قد بشر أصحابه بأنهم سيدخلون المسجد الحرام محلقين ومقصرين ، وشاع ذلك الخبر ، وفرح به المسلمون وسعدوا ، ثم فوجئوا بمفاوضات رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مع قريش ورجوعه وهو على بعد نحو عشرين كيلو مترًا من مكة . وحزن الصحابة . حتى أن عمر بن الخطاب رضى اللّه تعالى عنه غضب وقال للنبى صلى اللّه

عليه وسلم : ألست رسول اللَّه ؟ ألست على الحق ؟ فرد عليه سيدنا أبو بكر قائلاً : أيها الرجل إنه لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، وليس يعصى ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بغرزه ، فوالله إنه على الحق ؟[١] .

وقد أظهرت هذه الواقعة موقفًا لأم المؤمنين أم سلمة رضى اللَّه عنها ، وهو موقف يعبر عن الحنان والرحمة والمشورة اللينة الهينة . فحينما دخل عليها رسول اللَّه وقال لها : « هلك المسلمون أمرتهم أن يحلقوا وينحروا فلم يفعلوا »[٢] .

فانظر إلى مهمة الزوجة عندما يعود إليها زوجها مهمومًا ، هنا تتجلى وظيفتها فى السكن ، قالت أم سلمة : اعذرهم يا رسول اللَّه ؛ إنهم مكروبون . كانت نفوسهم مشتاقة لأن يدخلوا بيت اللَّه الحرام محلقين ومقصرين ، ثم حرموا منها وهم على بعد أميال منها ، اعمد إلى ما أمرك اللَّه فافعله ولاتُكلم أحدًا ، فإن رأوك فعلت ، علموا أن ذلك عزيمة .

وأخذ رسول اللَّه بنصيحة أم سلمة ، وصنع ما أمره به اللَّه ، وتبعه كل المسلمين ، وانتهت المسألة . وقبل أن يرجعوا للمدينة لم يشأ اللَّه أن يطيل على الذين انتقدوا الموقف حتى لا يظل الشرخ فى نفوس المؤمنين ، وتلك عملية نفسية شاقة ، لذلك لم يُطل اللَّه عليهم السبب ، وجاء بالعلة قائلاً لهم : ما يحزنكم فى أن ترجعوا إلى المدينة ؛ أنتم لكم إخوان مؤمنون فى مكة وقد أخفوا إيمانهم وهم مندسون بين الكفار ، فلو أنكم دخلتم ، وقاتلوكم ، ستقاتلون الجميع مؤمنين وكافرين ، فتقتلون إخوانًا لكم ، فلو كان هؤلاء الإخوان المؤمنون متميزون فى جانب من مكة لأذنت لكم بقتال المشركين ؛ كما تريدون . واقرأ قول اللَّه تعالى : ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح : ٢٥] .

---

(١) جزء من حديث طويل رواه البخارى [٢٥٨١] ، وابن حبان [٤٨٧٢] من حديث عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة رضى اللَّه تعالى عنه .

(٢) ذكره الحافظ فى الفتح من رواية أبى المليح ؛ وفيه : « فجلى اللَّه عنهم يومئذ بأم سلمة .

بعد نزول الآية عرف المسلمون أن الامتناع كان لعلة ولحكمة ، فلما جاءوا فى العام التالى قال اللّه لهم : ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ﴾ .

وكان الحق يطمئنهم ، فالذين صدوكم فى ذى القعدة من ذلك العام ستقابلونهم وستدخلون فى ذى القعدة من العام القادم . وخاف المسلمون إن جاءوا فى العام المقبل أن تنقض قريش العهد وتقاتلهم ، ونزل قول الحق سبحانه : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

وعندما نتأمل قوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فإننا نجد أن الحق سبحانه يؤكد على كلمة : ﴿ سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ لأنه يريد أن يضع حدًا لجبروت البشر ، ولابد أن تكون نية القتال فى سبيل اللّه لا أن يكون القتال بنية الاستعلاء والجبروت والطغيان . فلا قتال من أجل الجاه ، أو المال أو لضمان سوق اقتصادى ، وإنما القتال لإعلاء كلمة اللّه ، ونصرة دين اللّه ، هذا هو غرض القتال فى الإسلام .

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ . والحق ينهى عن الاعتداء ، أى : لا يقاتل مسلم من لم يقاتله ولا يعتدى[1] .

---

(١) قوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ .
قال القرطبى : قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ﴾ هذه الآية أول آية نزلت فى الأمر بالقتال ، ولا خلاف فى أن القتال كان محظورا قبل الهجرة بقوله : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ وقوله : ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ﴾ [المائدة: ١٣] . وقوله : ﴿ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ وقوله : ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية : ٢٢] . وما كان مثله مما نزل بمكة . فلما هاجر إلى المدينة أمر بالقتال فنزلت : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ قاله الربيع بن أنس وغيره .
وروي عن أبي بكر الصديق أن أول آية نزلت فى القتال : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ﴾ [الحج : ٣٩] . والأول أكثر ، وأن آية الإذن إنما نزلت فى القتال عامة لمن قاتل ولمن لم يقاتل من المشركين، وذلك أن النبى صلى اللّه عليه وسلم خرج مع أصحابه إلى مكة للعمرة ، فلما نزل الحديبية بقرب مكة - والحديبية اسم بئر ، فسمي ذلك الموضع باسم تلك البئر - فصده المشركون عن البيت ، وأقام بالحديبية شهرا ، فصالحوه على أن يرجع من عامه ذلك كما جاء ، على أن تخلى له مكة فى العام المستقبل ثلاثة أيام ، وصالحوه على ألا يكون بينهم قتال عشر سنين ، ورجع إلى المدينة . فلما كان من قابل=

= تجهز لعمرة القضاء ، وخاف المسلمون غدر الكفار وكرهوا القتال فى الحرم وفى الشهر الحرام ، فنزلت هذه الآية ، أى : يحل لكم القتال إن قاتلكم الكفار .

فالآية متصلة بما سبق من ذكر الحج وإتيان البيوت من ظهورها ، فكان عليه السلام يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه ، حتى نزل : ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة : ٥] فنسخت هذه الآية ، قاله جماعة من العلماء .

وقال ابن زيد والربيع : نسخها ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً ﴾ [التوبة : ٣٦] . فأمر بالقتال لجميع الكفار .

وقال ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومجاهد : هي محكمة أى : قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلونكم ، ولا تعتدوا فى قتل النساء والصبيان والرهبان وشبههم ، على ما يأتى بيانه .

قال أبو جعفر النحاس : وهذا أصح القولين فى السنة والنظر ، فأما السنة فحديث ابن عمر أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم رأى فى بعض مغازيه امرأة مقتولة فكره ذلك ، ونهى عن قتل النساء والصبيان ، رواه الأئمة . وأما النظر فإن « فاعل » لا يكون فى الغالب إلا من اثنين ، كالمقاتلة والمشاتمة والمخاصمة ، والقتال لا يكون فى النساء ولا فى الصبيان ومن أشبههم ، كالرهبان والزمني والشيوخ والأجراء فلا يقتلون . وبهذا أوصى أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه يزيد بن أبي سفيان حين أرسله إلى الشام ، إلا أن يكون لهؤلاء إذاية ، أخرجه مالك وغيره ، وللعلماء فيهم صور ست :

الأولى : النساء إن قاتلن قتلن ، قال سحنون : فى حالة المقاتلة وبعدها ، لعموم قوله : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ ، ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ [البقرة : ١٩١] وللمرأة آثار عظيمة فى القتال ، منها الإمداد بالأموال ، ومنها التحريض على القتال ، وقد يخرجن ناشرات شعورهن نادبات مثيرات معيرات بالفرار ، وذلك يبيح قتلهن ، غير أنهن إذا حصلن فى الأسر فالاسترقاق أنفع لسرعة إسلامهن ورجوعهن عن أديانهن ، وتعذر فرارهن إلى أوطانهن بخلاف الرجال .

الثانية : الصبيان فلا يقتلون للنهي الثابت عن قتل الذرية ، ولأنه لا تكليف عليهم، فإن قاتل الصبي قتل .

الثالثة : الرهبان لا يقتلون ولا يسترقون ، بل يترك لهم ما يعيشون به من أموالهم ، وهذا إذا انفردوا عن أهل الكفر ، لقول أبي بكر ليزيد : « وستجد أقواما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله ، فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له » فإن كانوا مع الكفار فى الكنائس قتلوا. ولو ترهبت المرأة فروى أشهب أنها لا تهاج .

وقال سحنون : لا يغير الترهب حكمها .

قال القاضي أبو بكر بن العربى : « والصحيح عندي رواية أشهب ، لأنها داخلة تحت قوله : « فذرهم وما حبسوا أنفسهم له » .

الرابعة : الزمنى . قال سحنون : يقتلون . وقال ابن حبيب : لا يقتلون . والصحيح أن=

= تعتبر أحوالهم ، فإن كانت فيهم إذاية قتلوا ، وإلا تركوا وما هم بسبيله من الزمانة وصاروا مالا على حالهم وحشوة .

الخامسة : الشيوخ . قال مالك فى كتاب محمد : لا يقتلون . والذى عليه جمهور الفقهاء : إن كان شيخا كبيرا هرما لا يطيق القتال ، ولا ينتفع به فى رأي ولا مدافعة فإنه لا يقتل ، وبه قال مالك وأبو حنيفة .

وللشافعي قولان : أحدهما : مثل قول الجماعة . والثاني: يقتل هو والراهب .

والصحيح الأول لقول أبي بكر ليزيد ، ولا مخالف له فثبت أنه إجماع .

وأيضا فإنه ممن لا يقاتل ولا يعين العدو فلا يجوز قتله كالمرأة ، وأما إن كان ممن تخشى مضرته بالحرب ، أو الرأى ، أو المال ، فهذا إذا أسر يكون الإمام فيه مخيرا بين خمسة أشياء : القتل ، أو المن ، أو الفداء ، أو الاسترقاق ، أو عقد الذمة على أداء الجزية .

السادسة : العسفاء ، وهم الأجراء والفلاحون ، فقال مالك فى كتاب محمد : لا يقتلون . وقال الشافعى : يقتل الفلاحون والأجراء والشيوخ الكبار إلا أن يسلموا أو يؤدوا الجزية . والأول أصح ، لقوله عليه السلام فى حديث رباح بن الربيع « الحق بخالد ابن الوليد فلا يقتلن ذرية ولا عسيفا » .

وقال عمر بن الخطاب : اتقوا الله فى الذرية والفلاحين الذى لا ينصبون لكم الحرب .

وكان عمر بن عبد العزيز لا يقتل حراثا ، ذكره ابن المنذر .

obeikandl.com

الظاهر والباطن

السؤال : **الناس يبدون ظاهرًا حسنًا ويخفون باطنًا سيئًا ، فما موقفهم أمام الله عز وجل ؟**

الجواب : يقول تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البقرة]

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يضع أمامنا قضية وجودية ، وهذه القضية الوجودية هي أن كل عمل له ظاهر وله باطن . ومن الجائز أن تتقن الظاهر وتدلس على الناس فى الباطن ، فإذا كان الناس لهم بعضهم ظاهر وباطن . فمن مصلحة الإنسان أن ينتمى هو والناس جميعًا إلى عالم يعرف فيه كل إنسان أن هناك إلهًا حكيمًا يعرف كل شىء عنا جميعًا .

فإذا كان عندك شىء لا أعلمه ، وأنا عندى شىء أنت لا تعلمه كيف تسير مصالحنا ؟ ولذلك فمن ضروريات حياتنا أن نؤمن معًا بإله يطلع على سرائرنا جميعًا ، وهذا ما يجعلنا نلزم الأدب . ولذلك قيل : « إن عَمّيْتَ على قضاء الأرض فلن تعمى على قضاء السماء » .

إذن . . فقضاء السماء وعلم الله بالغيب مسألة يجب أن نحمد الله عليها ، لأنه هو الذى سيحمى كل واحد منا من غيره . وعندما ستر الله غيبنا فذلك نعمة يجب أن نشكره عليها ؛ لأن النفوس متقلبة . فلو علمت ما فى نفسى عليك فى لحظة قد لا يسرك . . وقد لا تنساه أبدًا ويظل رأيك فىَّ سيئًا ، لكن الظنون والآراء تمر عندى وعندك وتنتهى . ولو اطلع كل منا على غيب الآخر لكانت الحياة مرهقة ، والقول المأثور يذكر ذلك : « لو تكاشفتم ما تدافنتم » .

إذن . . فمن رحمة الله ومن أكبر نعمه على خلقه أن ستر غيب خلقه

عن خلقه . والحق يحذرنا ممن قال فيهم : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ أى : الذين يظهرون من خير خلاف ما يبطنون من شر ، ولذلك صور الشاعر هذه المسألة فقال :

على الذم بتنا مجمعين وحالنا من الخوف حال المجمعين على الحمد

أى : لو تكاشفنا لقلنا كلنا ذمًّا ، إنما كلنا مداحون حين يلقى بعضنا بعضًا كل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه . و« يعجبك قوله » فهل الممنوع أن يعجبك القول ؟ لا ، يعجبنى القول ولكن فى غير الحياة الدنيا ، فالقول الذى يعجب هو ما يتعلق بأمر الحياة الآخرة الباقية ليضمن لنا الخير عمن يملك كل الخير .

وكفي بالذى يسمع من مادح له مدحًا ، والمادح نفسه يُضمر فى قلبه كرهًا له ، وكفي بذلك شهادة تغفيل للممدوح ، بأنه يقول بينه وبين نفسه : « إن الممدوح غبى ؛ لأنى أمدحه وهو مصدق مدحى له » . إن اللَّه سبحانه وتعالى ينبهنا إلى ضرورة أن يكون المسلم يقظًا وفطنًا ، ومن يقول لنا كلامًا يعجبنا فى الحياة الدنيا نتهمه بأن كلامه ليس حسنًا ؛ لأن خير الكلام هو ما يكون فى الأمر الباقى .

ولذلك عندما أرسل خليفةُ المسلمين للإمام جعفر الصادق رضى اللَّه تعالى عنه يقول له : لماذا لا تغشانا ، أى : لا تزورنا ، كما يغشانا الناس ؟

فكتب الإمام جعفر الصادق للخليفة يقول : أما بعد فليس عندى من الدنيا ما أخاف عليه ، وليس عندك من الآخرة ما أرجوك له .

وكأنه يريد أن يقول له : اتركنا وحالنا ؛ أنت محتاج لمن يجلس معك ويمدحك ، وأنت لا تعلم أن أول الناس لهم رأى سيئ فيك هم من يمدحونك .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ وهذه الآية نزلت فى الأخنس بن شريق الثقفي واسمه أبىّ ولقب بالأخنس لأنه خنس ورجع يوم بدر فلم يقاتل المسلمين مع قريش واعتذر لهم بأن العير قد نجت من المسلمين وعادت إليهم ، وكان ساعة يقابل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم

يظهر إسلامه ويلين القول للرسول ويدعى أنه يحبه ، ولكنه بعد أن خرج من عند رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم مرّ بزرع وحُمُر لقوم من المسلمين فأحرق الزرع وقتل الحُمُر . والآية وإن نزلت فى الأخنس فهي تشمل كل مُنافق .

﴿ وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ لا تقولوا : « اللَّه يشهد » ، وإنما هاتوا شهداءكم ليشهدوا على صدق قولكم ؛ لأن معنى « اللَّه يشهد » هو إخبار منك بأن اللَّه يشهد لك . وأنت كاذب فى هذه ، وتريد أن تضفي المصداقية على كذبك بإقحام اللَّه فى المسألة .

وساعة تسمع واحدًا يقول لك : أُشهِدُ اللَّه على أنى كذا ، فقل له : هذا إخبار منك بأن اللَّه يشهد ، وأنت قد تكذب فى هذا الخبر ، أنا أفضل أن يشهد اثنان من البشر ولا نقحم اللَّه فى هذه الشهادة . ﴿ وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ وألد الخصام هو الفاسق فى معصيته ، ويقال : فلان عنده لدد أى : له فسق فى خصومته ، ويجادل بالباطل ، ولذلك يقول الرسول صلى اللَّه عليه وسلم : « إنّ أبغض الرجال إلى اللَّه هو الألد الخصم »[1] .

---

(١) أخرجه البخارى [٢٤٥٧] ، ومسلم [٢٦٦٨/ ٥] عن عائشة رضى اللَّه تعالى عنها .

وقوله : « الألد الخصم » هو : الدائم الخصومة ، و « لدا » : عوجًا ، « وألد » : أعوج . قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ الألد : الشديد الخصومة ، وهو رجل ألد ، وامرأة لداء ، وهم أهل لدد . وقد لددت - بكسر الدال - تلد - بالفتح - لددا ، أي صوت ألد . ولددته - بفتح الدال - ألده - بضمها - إذا جادلته فغلبته . والألد مشتق من اللديدين ، وهما صفحتا العنق ، أي فى أي جانب أخذ من الخصومة غلب .

قال الشاعر :

وألد ذي حنق علي كأنما ... تغلي عداوة صدره فى مرجل

وقال آخر :

إن تحت التراب عزما وحزما ... وخصيما ألد ذا مغلاق

و ﴿ ٱلْخِصَامِ ﴾ فى الآية مصدر خاصم ، قاله الخليل . وقيل : جمع خصم ، قاله الزجاج ، ككلب وكلاب ، وصعب وصعاب ، وضخم وضخام . والمعنى أشد المخاصمين خصومة ، أي هو ذو جدال ، إذا كلمك وراجعك رأيت لكلامه طلاوة وباطنه باطل . وهذا يدل على أن الجدال لا يجوز إلا بما ظاهره وباطنه سواء .

يعنى المجادل بالباطل الذى عنده قسوة فى المعصية ، فهو عاص وفى الوقت نفسه قاس فى معصيته . ولماذا هو ألد الخصام ؟ لأن الذى يجابهك بالأمر يجعلك تحتاط له ، أما الذى يقابلك بنفاق فهو الذى يريد أن يخدعك ، وهذا عنف فى الخصومة ، فالخصم الواضح أفضل لأنه يواجهك بما فى باطنه ، لكن إذا جابهت الذى يُبطن خصومته ويظهر محبته يكون قاسيًا عليك فى خصومته ؛ لأنه يريد أن يخدعك ويُبيّت لك .

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ﴾ و ﴿ تَوَلَّىٰ ﴾ انصرف ، أى : يقول لك ما يعجبك ، فإذا تولى عنك نقل المسألة إلى الحقيقة بإظهار ما كان يخفيه ، ويحتمل المعنى أنه إذا تولى شيئًا آخر ، من الولاية ، ففيه « تَولّى » من التَّولّى وهو الانصراف والإعراض ، وفيه « تُولّى » من الولاية .

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ﴾ كانت الأرض بدون تدخل البشر مخلوقة على هيئة الصلاح ، والفساد أمر طارئ من البشر . ونعرف أن الفساد لم يطرأ على أي أمر إلا وللإنسان فيه دخل .

ولماذا اشتكينا أزمة قوت ولم نشتك أزمة هواء ؟ لأن الهواء لا تدخل للإنسان فيه ، وبمقدار تدخل الإنسان يكون الفساد . لقد تدخلنا قليلاً فى المياه فجاء فى ذلك فساد ، فلم نحسن نقلها فى مواسير جيدة فوصلت لنا ملوثة ، أو زاد عليها الكلور أو نقص . وبقدر ما يكون التدخل يكون الإفساد ، أما فى الزمن القديم فقد كان الإنسان يذهب إلى مصدر الماء المباشر فى الآبار ويأخذ الماء الطبيعى الذى خلقه اللّه بلا تدخل من الإنسان ولم يوجد تلوث أو غيره .

إذن . . فعلى مقدار وجود الإنسان فى حركة الحياة غير المُرشّدة بالإيمان باللّه ينشأ الفساد ، ولذلك كان لابد من منهج سماوى للإنسان . والكائنات غير الإنسان ليس لها منهج وهى مخلوقة بالغريزة وتؤدى مهمتها فقط ؛ فالدابة لم تمتنع يومًا عن ركوبك عليها ، ولم تمتنع أن تحمل عليها أثقالك ، أو تستعين بها فى الحرث ، أو الرى ، حتى عندما تذبحها لا تمتنع عليك ، لماذا ؟ لأنها مخلوقة بالغريزة التى تؤدى بها الحركة النافعة بدون اختيار منها . وإذا امتنعت فى وقت فإنما يكون ذلك لأمر طارئ كمرض مثلاً .

لكن الذى له اختيار لابد أن يكون له منهج يقول له : افعل هذه ولا تفعل تلك . فإن استقام مع المنهج فى « افعل » و « لا تفعل » سارت حياته بشكل متوازن ، لكن إذا لم يستقم تفسد الحياة .

وهذا ما نفهمه من قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ﴾ كأن الإفساد هو الذى يحتاج إلى عمل ، اترك الطبيعة والمخلوقات كما هي تجدها تعمل فى انضباط وكمال على ما يرام .

إذن . . فالفساد طارئ من الإنسان الذى يحيا بلا منهج لأنه ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ﴾ فكأن الأصل فى الأرض وما فيها جاء على هيئة الصلاح ، فإن لم تزد الصالح صلاحًا فلا تحاول أن تفسده . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البقرة] .

obeikandl.com

القيام بكل تكاليف الإسلام

السؤال : يطلب اللَّه منا أن ندخل فى السِّلم كافة ، فما شروط الدخول فى السِّلم ؟

الجواب : نادى اللَّه جميع المؤمنين فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [البقرة : ٢٠٨] .

تبدأ الآية بنداء الذين آمنوا باللَّه وكأنه يقول لهم : يا مَن آمنتم بى استمعوا لحديثى . فلم يكلف اللَّه من لم يؤمن به وإنما خاطب الذين أحبوه وآمنوا به ، وما داموا قد أحبوا اللَّه فلابد أن يتجه كل مؤمن إلى من يحبه ؛ لأن اللَّه لن يعطيه إلا ما يسعده[١] .

---

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين به المصدقين برسوله ؛ أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه والعمل بجميع أوامره وترك جميع زواجره ما استطاعوا ذلك . قال العوفى ، عن ابن عباس ، ومجاهد ، وطاوس ، والضحاك وعكرمة ، وقتادة ، والسدى ، وابن زيد ، فى قوله : ﴿ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ يعنى : الإسلام . اهـ .
وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ كَآفَّةٗ ﴾ قال مجاهد : أي اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر . وقال ابن كثير : ومن المفسرين من يجعل قوله : ﴿ كَآفَّةٗ ﴾ حالاً من الداخلين أى : ادخلوا فى الإسلام كلكم . والصحيح الأول وهو أنهم أمروا أن يعملوا بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام وهي كثيرة جدًا ما استطاعوا منها . اهـ . ابن كثير [١/ ٣٦١] .
وقال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : عن هذه الآية : إنها استئناف على طريقة الاعتراض انتهازا للفرصة بالدعوة إلى الدخول فى السلم ومناسبة ذكره عقب ما قبله ، أن الآيات السابقة اشتملت على تقسيم الناس تجاه الدين مراتب ، أعلاها : ﴿ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ ﴾ [البقرة : ٢٠٧] . لأن النفس أغلى ما يبذل ، وأقلها : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴾ [البقرة : ٢٠٤] . أي يضمر الكيد ويفسد على الناس ما فيه نفع الجميع وهو خيرات الأرض ، وذلك يشتمل على أنه اعتدى على قوم مسالمين فناسب بعد ذلك أن يُدعى الناس=

إذن . . فالتكليف من اللَّه إسعادٌ لمن أحب ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ ﴾ ، وكلمة « فى » تُفيد الظرفية ، ومعنى الظرفية أن شيئًا يحتوى شيئًا ، مثال ذلك الكوب الذى يحتوى الماء فنقول : « الماء فى الكوب » ، وكذلك المسجد يحتوى المصلين فنقول : « المصلون فى المسجد » .

والظرفية تدل على إحاطة الظرف بالمظروف ، وما دام الظرف قد أحاط بالمظروف إذن فلا جهة يفلت منها المظروف من الظرف . ولذلك يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة التمكن من مسألة الظرفية عندما يقول : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ ﴾ .

إن الصلب دائمًا يكون على شىء ، وتشاء الآية الكريمة أن تشرح لنا كيف يمكن أن يكون الصلب متمكنًا من المصلوب . فأنت إذا أردت أن تصلب شيئًا على شىء فأنت تربطه على المصلوب عليه ، فإذا ما بالغت فى ربطه كأنك أدخلت المصلوب داخل المصلوب عليه .

ومثال ذلك ، هات عود كبريت وضعه على إصبعك ثم اربطه بخيط ربطًا جيدًا ، ستلاحظ أن العود قد غاص فى جلدك . والحق يقول : ﴿ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً ﴾ والسِّلْم والسِّلْمُ والسَّلَم هو الإسلام ، فالمادة كلها واحدة ؛ لأن السلم ضد الحرب ، والإسلام جاء لينهى الحرب بينك وبين الكون الذى تعيش فيه لصالحك ولصالح الكون ولتكون فى سلام مع اللَّه وفى سلام مع الكون ، وفى سلام مع الناس . وفى سلام مع نفسك .

قوله : ﴿ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً ﴾ معناه : حتى يكتنفكم السلم . إن اللَّه هو الإله الخالق للكون ولابد أن تعيشوا فى سلام معه ؛ لأنكم لا تؤمنون إلا به إلهًا واحدًا . فيجب علينا أن نعيش مع الأرض والسماء والكون فى سلام ؛ لأن الكون الخاضع المقهور المسخر الذى لا يملك أن يخرج عما رُسم له يعمل لخدمتك ولا يعاندك .

= إلى الدخول فيما يطلق عليه اسم السلم وهذه المناسبة تقوى وتضعف بحسب تعدد الاحتمالات فى معنى طلب الدخول فى السلم .

التحرير والتنوير [٢/ ٢٧٥] .

والإنسان حين يكون طائعًا يُسَرّ به كل شيء فى الوجود ؛ لأن الوجود طائع ومُسَبِّح ، فساعة يجد الإنسانَ مُسبِّحًا مثله يُسَرّ به لأنه فى سلام مع الكون . وأنت فى سلام مع نفسك ؛ لأن لك إرادة ، وهذه الإرادة قَهَرَ اللَّه لها كل جوارحك ، والذى تريده من أي عضو يفعله لك ، لكن هل يرضى أىُّ عضو عمّا تأمره به ؟ تلك مسألة أخرى ، مثلاً ، لسانك ينفعل بإرادتك ، فتقول به : « لا إله إلا اللَّه » وقال به غيرنا من المشركين غير ذلك ، وأشركوا مع اللَّه بشرًا وغير بشر يعبدونهم . وقال الملحدون بألسنتهم والعياذ باللَّه : « لا إله فى الكون » ولم يعص اللسان أحدًا من هؤلاء لأنه مقهور لإرادتهم .

وتنتهى إرادة الإنسان على لسانه وعلى جميع جوارحه يوم القيامة فيشهد عليه كما تشهد عليه سائر أعضائه : الأرجل ، والأيدى ، والعيون ، والآذان ، وكل عضو يُقر بما كان يفعل به ، لأنه لا سيطرة للإنسان على تلك الأعضاء فى هذا اليوم . إنما السيطرة كلها للخالق الأعلى[١] .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يس : ٦٥] .

وقال القاسمى فى قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي عندما يجحدون ما اجترموه فى الدنيا ، ويحلفون ما فعلوه ، فيختم اللَّه على أفواههم ، ويستنطق جوارحهم . قال الرازيّ : وفى الختم على الأفواه وجوه : أقواها أن اللَّه يسكت ألسنتهم فلا ينطقون بها ، وينطق جوارحهم فتشهد عليهم ، وإنه فى قدرة اللَّه يسير . أما الإسكات فلا خفاء فيه . وأما الإنطاق فلأن اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة . فكما جاز تحركه بها ، جاز تحرك غيره بمثلها . واللَّه قادر على الممكنات . والوجه الآخر ، أنهم لا يتكلمون بشيء ، لانقطاع أعذارهم وانهتاك أستارهم . فيقفون ناكسى الرؤوس وقوف القنوط اليئوس ، لا يجد عذرا فيعتذر ، ولا مجال توبة فيستغفر . وتكلم الأيدى ظهور الأمور بحيث لا يسع معه الإنكار ، حتى تنطق به الأيدى والأبصار .

تفسير القاسمى [١٤/ ٥٠١٥] .

وفى الحديث عن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فضحك فقال : « هل تدرون مم أضحك ؟ » قال قلنا : اللَّه ورسوله أعلم . قال : « من مخاطبة العبد ربه . يقول : يا رب ! ألم تُجِرْنِى من الظُّلْمِ ؟ قال يقول : بلى ، قال فيقول : فإني=

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦] . والحق حين ينادى المؤمنين بأن يدخلوا فى السلم كافة فالمعنى يحتمل أيضًا أن الحق سبحانه وتعالى يخاطب المسلمين ألا يأخذوا بعضًا من الدين ، ويتركوا البعض الآخر ، فيقول لهم : خذوا الإسلام كُله وطبقوه كاملاً ؛ لأن الإسلام يمثل بناء له أسس معلومة ، وقواعد واضحة ، فلا يحاول أحد أن يأخذ شيئًا من حكم بعيدًا عن حكم آخر ، وإلا لحدث الخلل .

وعلى سبيل المثال قد تجد خلافًا بين الزوج والزوجة ، وقد يؤدى الخلاف إلى معارك وطلاق ، وبعد ذلك نجد من يتهم الإسلام بأنه أعطى الرجل سيفًا مسلطًا على المرأة . ونقول لهم : ولماذا تتهمون الإسلام ؟ هل دَخَلْتَ على الزواج بمنطق الإسلام ؟ . إن كنت قد دخلت على الزواج

= لا أُجِيزُ على نفسى إلا شاهدًا منى ، قال فيقول : كفي بنفسك اليوم عليك شهيدًا . وبالكرام الكاتبين شهودًا . قال : فيُخْتَمُ على فيه . فيقال لأركانه : انطقى . قال فتنطق بأعماله . قال : ثم يُخَلَّى بينه وبين الكلام . قال فيقول : بُعْدًا لكُنَّ وَسُحْقًا . فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ » [(١)] .

وعن أبى هُريرة قال : قالوا : يا رسول اللّه ، هل نَرَى رَبَّنَا يوم القيامة ؟ قال : « هل تُضَارُّون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ، ليست فى سحابة ؟ » قالوا : لا . قال : « فهل تضارون فى رُؤية القمر ليلة البدر ، ليس فى سحابة ؟ » قالوا : لا . قال : « فَوَ الذى نفسى بيده ، لا تُضَارون فى رؤية ربكم إلا كما تُضَارُّونَ فى رؤية أحدهما . قال فَيَلْقَى العبد فيقول : أَىْ فُلْ ! أَلَم أُكْرِمْكَ ، وَأُسَوِّدْكَ ، وأُزَوِّجْكَ ، وأُسَخِّرْ لك الخيل والإبل ، وأَذَرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ ؟ فيقول : بلى . قال فيقول : أَفَظَنَنْتَ أنك مُلاَقِيَّ ؟ فيقول : لاَ . فيقول : فإني أنساك كما نسيتنى . ثُم يَلْقَى الثانى فيقول : أَىْ فُلْ ! أَلَم أُكْرِمْكَ ، وَأُسَوِّدْكَ ، وأُزَوِّجْكَ ، وأُسَخِّرْ لك الخيل والإبل ، وأَذَرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ ؟ فيقول : بلى . قال فيقول : أَفَظَنَنْتَ أنك مُلاَقِيَّ ؟ فيقول : لاَ . فيقول : فإني أنساك كما نسيتنى . ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك . فيقول : يا رب ! آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت . ويُثْنِى بخَيْرٍ ما استطاع . فيقول : هَهُنَا إذًا .

قال ثم يقال له : الآن نبعث شاهدنا عليك . ويتفكر فى نفسه : من ذا الذى يشهد على ؟ فيختم على فيه . ويقال لفخذه ولحمه وعظامه : انطقى ، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله ، وذلك لِيُعْذِرَ من نفسه . وذلك المنافق . وذلك الذى يسخط اللّه عليه »[(٢)] .

---

(١) رواه مسلم [١٧/٢٩٦٩] .

(٢) رواه مسلم [١٦/٢٩٦٨] .

بمنطق الإسلام فستجد القواعد المنظمة والتى تحفظ للمرأة كرامتها ، ولكن هناك من يدخل على الزواج بغير منطق الإسلام ، فلما وقع فى الأزمة راح ينادى الإسلام . هل اختار الرجل من تشاركه حياته بمقياس الدين ؟ وهل وضع نُصب عينيه شروط اختيار الزوجة الصالحة التى جاءت فى الحديث الشريف : عن أبى هريرة رضى اللَّه عنه عن النبى صلى اللَّه عليه وسلم قال : « تنكح المرأة لأربع ، لمالها ، ولحسبها ، وجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك »[١] .

هل فضّل الرجل ذات الدين على سواها ؟ أم فضّل مقياسًا آخر ؟ وعندما جاء رجل ليخطب ابنة من أبيها هل وضع الأب مقاييس الإسلام فى الاعتبار عند موافقته على هذا الزواج ؟ هل فضلتم من ترضون دينه وخُلُقه[٢] ؟ أو تركتم تلك القواعد . أنت تركت قواعد الإسلام فلماذا تلوم الإسلام عند سوء النتائج والعواقب ؟

إنك إن أردت أن تحاسب فلابد أن تأخذ كل أمورك بمقاييس الإسلام ، ثم تتصرّف بما يناسب الإسلام . فإن كنت كذلك فالإسلام يحميك من كل شىء . فالإسلام يساند القُوَى فى الكون ويساند القُوَى فى النفس بحيث تعيش فى سلام ولا تتعاند ؛ لأن كل ذلك يقابله الحرب . والحرب إنما تنشأ من تعاند القوى ، فتتعاند قوى نفسك فى حرب مع نفسك ، وتتعاند قوى البشر فى حرب البشر مع البشر ، وتتعاند قواك مع قوى الكون الأخرى ، فأنت تعاند الطبيعة وتعاند مع الحق سبحانه وتعالى .

إذن . . فالتعاند ينشأ منه الحرب ، والحرب لا تنشأ إلا إذا اختلفت الأهواء . وأهواء البشر لا يمكن أن تلتقى إلا عندما تكون محروسة بقيم من لاهوى له ، ولذلك يقول اللَّه عز وجل : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون : ٧١] .

---

(١) رواه البخارى [٥٠٩٠] ، ومسلم [١٤٦٦/ ٥٣] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه .

(٢) لقوله صلى اللَّه عليه وسلم : « إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فى الأرض فتنة وفساد عريض » . رواه الترمذى [١٠٨٤] ، وابن ماجه [١٩٦٧] وقال الألبانى : حسن .

لماذا ؟ دعك من الكون الأصم حولك ، أو دعك من الكون الذى لا اختيار له فى أن يفعل أو ينفعل لك ؛ فهو فاعل أو منفعل لك بدون اختيار منه ، ولكن انظر إلى البشر من جنسك ، فما الذى يجعل هوى إنسان يسيطر على أهواء غيره ؟

ما الذى زاده ذلك الإنسان حتى تكون أنت تابعًا له ؟ أو يكون هو تابعًا لك ؟ وفى قانون التبعية لا يمكن إلا أن يكون التابع مؤمنًا بأن المتبوع أعلى منه ، ولا يمكن لبشر أن توجد عنده هذه الفوقية أبدًا . لذلك لابد للبشر جميعًا أن يكونوا تبعًا لقوة آمنوا بأنها فوقهم جميعًا . فحين نؤمن ندخل فى السلم ، ولا يوجد تعاند بين أي قوة وقوة أخرى ؛ لأنى لست خاضعًا لك ، وأنت لست خاضعًا لى ، وأنا وأنت مسلمون لقوة أعلى منى ومنك ، ويُشترط فى القوة التى نتبعها طائعين ألا يكون لها مصلحة فيما تشرع .

إن المشرعين من البشر يراعون مصالحهم حين يشرعون ، فمشرع الشيوعية يضع تشريعه ضد الرأسمالية ، ومشرع الرأسمالية يضع تشريعه ضد الشيوعية ، لكن عندما يكون المشرع غير منتفع بما يشرع ، فهذا هو تشريع الحق سبحانه وتعالى .

وحين ندخل فى الإسلام ندخل جميعًا لا يشذ منا أحد ، ذلك معنى ﴿ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ [البقرة : ٢٠٨] . هذا معنى وارد ، وهناك معنى آخر وارد أيضًا وهو : ﴿ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ ﴾ أى : الإسلام بجميع تكاليفه بحيث لا تتركوا تكليفًا يشذ منكم .

وحين يأتى المعنى الأول فلأننا لو لم ندخل فى السلم جميعًا لشقى الذين يُسلمون بالذين لا يُسلمون ؛ لأن الذى يُسلم سيهذب سلوكه بالنسبة للآخرين ، ويكون نفع المسلم لسواه ، ويشقى المسلم بعدم إسلام من لم يسلم ، فمن مصلحتنا جميعًا أن نكون جميعًا مسلمين . والذين لا يدركون هذه الحقيقة يفسرون قول اللّه تعالى : ﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ [المائدة : ١٠٥] .

الإعجاز فى أحكام الحيض

السؤال : ما هو الإعجاز فى أحكام الحيض ؟

الجواب : يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

حين تقرأ : ﴿ هُوَ أَذًى ﴾ فقد أخذت الحكم ممن يُؤْمَنُ على الأحكام ، ولا تناقش المسألة ، ومهما قال الطب من تفسيرات وتعليلات وأسباب نَقُلْ له : لا ، الذى خلق قال : ﴿ هُوَ أَذًى ﴾ . والمحيض يطلق على الدم ، ويراد به - أيضًا - مكان الحيض ، ويراد به زمان الحيض .

وقول الحق سبحانه عن المحيض إنه أذى يهيِّئ الذهن لأن يتلقى حكمًا فى هذا الأذى ، وبذلك يستعد الذهن للحظر الذى سيأتى به الحكم ، وقد جاء الحكم بالحظر والمنع بعد أن سبقت حيثيته .

إن الحق سبحانه وتعالى - وهو الخالق - أراد أن تكون عملية الحيض فى المرأة عملية كيماوية ضرورية لحياتها وحياة الإنجاب ، وأمر الرجال أن يعتزلوا النساء وهن حوائض ؛ لأن المحيض أذى لهم ، لكن هل دم الحيض أذى للرجال أم للنساء ؟ إنه أذى للرجال والنساء معًا ؛ لأن الآية أطلقت الأذى ، ولم تحدد من المقصود به .

والذى يدل على ذلك أن الحيض يعطى قذارة للرجل فى مكان حساس هو موضع الإنزال عنده ، فإذا وصلت إليه الميكروبات تصيبه بأمراض خطيرة .

والحيض هو دم يحتوى على أنسجة غير حية ، وتصبح منطقة المهبل والرحم فى حالة تهيج ، لأن منطقة المهبل والرحم حساسة جدا لنمو

الميكروبات المسببة للالتهابات ، سواء للمرأة أم للرجل إنْ جامع زوجته فى فترة الحيض ، والحيض يصيب المرأة بأذى فى قوتها وجسدها ؛ بدليل أن اللَّه سبحانه رَخَّصَ لها ألا تصوم وألّا تصلى فى هذه الحالة .

إذن . . فالمسألة منهكة ومتعبة لها ، فلا يجوز أن يرهقها الرجل بأكثر مما هي عليه .

إذن . . فقوله تعالى : ﴿ هُوَ أَذًى ﴾ تعميم بأن الأذى يصيب الرجل والمرأة ، وبعد ذلك بيّن الحق الأعلى سبحانه أن كلمة : ﴿ أَذًى ﴾ حيثية تتطلب حكمًا يأتى ، إما بالإباحة وإما بالحظر ، وما دام : ﴿ هُوَ أَذًى ﴾ فلابد أن يكون حظرًا .

يقول الحق عز وجل : ﴿ فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ ﴾ والذى يقول : إنّ المحيض هو مكان الحيض يبنى قوله بأن المحرم هو المباشرة الجنسية ، لكن ما فوق السرة وما فوق الملابس فهو مباح ، فقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ ﴾ أى : لا تأتوهن فى المكان الذى يأتى منه الأذى وهو دم الحيض . ﴿ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ . و﴿ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ : من الطهور .

النهى عن كثرة الحلف

السؤال : **لماذا ينهانا اللّه عن الحلف بالله عرضة للبر والتقوى والإصلاح بين الناس ؟**

الجواب : يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٤]

وفى الآية ثلاثة أشياء :

أولاً : وأن تبروا ، أى : أن تفعلوا البر . والبر قد يكرهه بعض الناس ؛ لأنه شاق على النفس .

ثانيًا : وأن تتقوا ، أى : أن تتجنبوا المعاصى ، والتقوى تكون أيضًا شاقة فى بعض الأحيان .

ثالثًا : وأن تصلحوا بين الناس ، أى : أن تصلحوا ذات البين ، وقد يكون فى الإصلاح بين الناس مؤونة وذلك بعد أن تمتنعوا أن تجعلوا اللّه عرضة للقسم .

وحين يقول سبحانه : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ﴾ فالعُرضة هى الحجاب ، وهى ما يُعترض بين شيئين ، « وعرضة » هى - أيضًا - الأمر الصالح لكل شىء ، فيقال : « فلان عرضة لكل المهمات » ؛ أى : صالح ، إذن . . العرضة هى : ما اعترض بين شيئين ، كأن يضع الإنسان يده على عينيه فلا يرى الضوء ، هنا تكون اليد « عُرضة » بين عينى الإنسان والشمس . إن الإنسان يحجب بذلك عن نفسه الضوء .

كأن الحق يقول : « أنا لا أريد أن تجعلوا اليمين عرضة بين الإنسان وفعل الخير والبر والتقوى » . فعندما يطلب منك واحد أن تبر من أساء إليك فقد تقول : « أنا أقسمت ألا أبر هذا الإنسان » إنك بذلك جعلت اليمين باللّه مانعًا بينك وبين البر .

openkandil.com

ويريد الحق بذلك القول أن ينبهنا إلى أن القسم به لا يجوز فى منع البر ، أو قطع صلة الرحم ، أو عدم إصلاح بين الناس . . ومن حلف على شىء فرأى غيره خيرًا منه فليفعل الخير وليكفر عن يمينه ، لماذا ؟ لأن المؤمن عندما يحلف على ألا يفعل خيرًا فهو يضع اللَّه مانعًا بينه وبين الخير ، وبذلك يكون المؤمن قد ناقض نفسه بأن جعل المانع هو الحلف باللَّه . إن اللَّه هو صاحب الأمر بالبر والتقوى والإصلاح بين الناس . لذلك فالحق يقول : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ﴾ . أى إن الحق يريد أن يحمى عمليات البر والتقوى والإصلاح بين الناس .

إنك إن حلفت أيها المؤمن ألا تفعل هذه العمليات ، فالحق يريد لك أن تحنث فى هذا القسم وأن تفعل البر والتقوى والإصلاح بين الناس حتى لا تتناقض مع تشريع اللَّه . ونحن عندما نجد المجتمع وقد صنع كل فرد فيه البر ، واتقى فيه كل إنسان المعاصى ، ورأى فيه كل إنسان نزاعًا بين جماعتين فأصلح هذا النزاع ، أليس هذا دخولاً فى السلم كافة . إذن فالحق يريد أن يستبقى للناس ينابيع الخير وألا يسدوها أمام أنفسهم .

إن الحق هو الأمر بألا يجعل المؤمن اليمين مانعًا بين الإنسان والبر ، أو بين الإنسان والتقوى ، أو بين الإنسان والإصلاح بين الناس[١] .

---

(١) قال القرطبى فى التفسير : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٤] .

قال العلماء : لما أمر اللَّه تعالى بالإنفاق وصحبة الأيتام والنساء بجميل المعاشرة قال : لا تمتنعوا عن شىء من المكارم تعللا بأنا حلفنا ألا نفعل كذا ، قال معناه ابن عباس والنخعى ومجاهد والربيع وغيرهم .

قال سعيد بن جبير : هو الرجل يحلف ألا يبر ولا يصل ولا يصلح بين الناس ، فيقال له : بر ، فيقول : قد حلفت . وقال بعض المتأولين : المعنى ولا تحلفوا بالله كاذبين إذا أردتم البر والتقوى والإصلاح ، فلا يحتاج إلى تقدير « لا » بعد « أن » .

وقيل : المعنى لا تستكثروا من اليمين بالله فإنه أهيب للقلوب ، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ [المائدة : ٨٩] . وذم من كثر اليمين فقال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴾ [القلم : ١٠] . والعرب تمتدح بقلة الأيمان ، حتى قال قائلهم :

قليل الألايا حافظ ليمينه وإن صدرت منه الألية برت

وعلى هذا : ﴿ أَنْ تَبَرُّوا ﴾ معناه : أقلوا الأيمان لما فيه من البر والتقوى ، فإن الإكثار=

= يكون معه الحنث وقلة رعي لحق الله تعالى ، وهذا تأويل حسن .

وقال مالك بن أنس : بلغني أنه الحلف بالله فى كل شيء . وقيل : المعنى لا تجعلوا اليمين مبتذلة فى كل حق وباطل . وقال الزجاج وغيره : معنى الآية : أن يكون الرجل إذا طلب منه فعل خير اعتل بالله فقال : علي يمين ، وهو لم يحلف .

القتبى : المعنى إذا حلفتم على ألا تصلوا أرحامكم ولا تتصدقوا ولا تصلحوا ، وعلى أشباه ذلك من أبواب البر فكفروا اليمين .

قلت : وهذا حسن لما بيناه ، وهو الذى يدل على سبب النزول ، على ما نبينه فى المسألة بعد هذا .

قيل : نزلت بسبب الصديق إذ حلف ألا ينفق على مسطح حين تكلم فى عائشة رضى الله عنها ، كما فى حديث الإفك .

وقيل : نزلت فى الصديق أيضا حين حلف ألا يأكل مع الأضياف .

وقيل : نزلت فى عبد الله بن رواحة حين حلف ألا يكلم بشير بن النعمان وكان ختنه على أخته ، والله أعلم .

وفي الدر المنثور للسيوطي قال : أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى فى مسنده عن ابن عباس ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ﴾ يقول : لا تجعلني فى عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير ، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : هو أن يحلف الرجل أن لا يكلم قرابته ، أو لا يتصدق ، أو يكون بين رجلين مغاضبة فيحلف لا يصلح بينهما ، ويقول قد حلفت . قال : يكفر عن يمينه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : كان الرجل يحلف على الشيء من البر والتقوى لا يفعله ، فنهى الله عن ذلك .

أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى الآية قال : هو الرجل يحلف لا يصل رحمه ، ولا يصلح بين الناس ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء قال : جاء رجل إلى عائشة فقال : إنى نذرت إن كلمت فلانا فإن كل مملوك لي عتيق ، وكل مال لي ستر للبيت . فقالت : لا تجعل مملوكيك عتقاء ، ولا تجعل مالك سترا للبيت ، فإن الله يقول : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا . . . ﴾ الآية . فكفر عن يمينك .

وأخرج أبو داود والحاكم وصححه عن سعيد بن المسيب : أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث ، فسأل أحدهما صاحب القسمة فقال : إن عدت تسألني القسمة لم أكلمك أبدا ، وكل ما لي فى رتاج الكعبة . فقال له عمر : إن الكعبة لغنية عن مالك ، كفر عن يمينك وكلم أخاك ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يمين ولا =

= نذر فى معصية الرب ، ولا فى قطعية الرحم ، وفيما لا تملك » [١].

وأخرج النسائى وابن ماجه عن مالك الجشمي رضى اللّه تعالى عنه قال : « قلت : يا رسول اللّه يأتيني ابن عمي فأحلف أن لا أعطيه ولا أصله ؟ قال : كفر عن يمينك » [٢].

وأخرج ابن جرير عن عائشة فى الآية قالت : لا تحلفوا بالله وإن نذرتم[٣] . وأخرج عبد الرزاق عن طاوس فى قوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ﴾ قال : هو الرجل يحلف على الأمر الذى لا يصلح ثم يعتل بيمينه ، يقول اللّه : ﴿ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا ﴾ هو خير من أن تمضي على ما لا يصلح .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: كان الرجل يريد الصلح بين اثنين فيغضبه أحدهما أو يتهمه ، فيحلف أن لا يتكلم بينهما فى الصلح ، فنزلت الآية .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : حدثت أن قوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ . . . ﴾ الآية نزلت فى أبي بكر فى شأن مسطح .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ يعني اليمين التى حلفوا عليها ﴿ عَلِيمٌ ﴾ يعني عالم بها ، كان هذا قبل أن تنزل كفارة اليمين .

وأخرج أحمد والبخارى ومسلم وابن ماجه عن أبي هريرة عن النبى صلى اللّه عليه وسلم : « لأن يلج أحدكم فى يمينه فى أهله ، آثمُ له عند اللّه من أن يعطى كفارته التى افترض عليه » [٤].

وأخرج أحمد وأبو داود وابن ماجه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « لا نذر ولا يمين فيما لا يملك ابن آدم ، ولا فى معصية اللّه ، ولا فى قطيعة الرحم ، ومن حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليدعها وليأت الذى هو خير ، فإن تركها كفارتها » [٥].

وأخرج ابن ماجه وابن جرير عن عائشة رضى اللّه تعالى عنها قالت : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « من حلف على يمين قطيعة رحم أو معصية ، فبره أن يحنث فيها ويرجع عن يمينه » [٦].

وأخرج مالك ومسلم والترمذى والنسائى عن أبي هريرة : « أن رسول اللّه صلى اللّه عليه =

(١) رواه أبو داود [٣٢٧٢] وقال الألباني : ضعيف ، والحاكم فى المستدرك [٤/ ٣٣٣] ، وابن حبان فى صحيحه [٤٣٥٥] وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح .

(٢) رواه ابن ماجه [٢٠١٩] ، والنسائى فى المجتبى [٧/ ١١/ ٣٧٨٨] وقال الألباني : صحيح .

(٣) رواه ابن جرير الطبرى [٣٤٩٥] .

(٤) رواه البخارى [٦٦٢٥] ، ومسلم [٢٦/ ١٦٥٥] .

(٥) رواه أبو داود [٣٢٧٤] ، وابن ماجه [٢١١١] وقال الألباني : منكر ، وأحمد فى المسند [٢/ ٢١٢] وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح ، وقال الأرناؤوط : إسناده حسن .

(٦) رواه ابن ماجه [٢١١٠] وقال الألباني : صحيح ، وابن جرير الطبرى [٣٥٤٨] .

obeikandl.com

= وسلم قال : من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها ، فليكفر عن يمينه ، وليفعل الذى هو خير » [(١)].

وأخرج البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن أبى موسى الأشعري قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « إنى - والله إن شاء اللّه - لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذى هو خير، وتحللتها » [(٢)].

وأخرج مسلم والنسائى وابن ماجه عن عدى بن حاتم قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها ، فليأت الذى هو خير فليكفر عن يمينه » [(٣)].

وأخرج البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى عن عبد الرحمن بن سمرة قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها ، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك » [(٤)].

وقال الحافظ ابن حجر فى الفتح : والمراد لا تجعل اليمين التى حلفت أن لا تفعل خيرا سواء كان ذلك من عمل أو ترك سبب يعتذر به عن الرجوع عما حلفت عليه خشية من الإثم المرتب على الحنث ؛ لأنه لو كان إثما حقيقة لكان عمل ذلك الخير رافعا له بالكفارة المشروعة ثم يبقى ثواب البر زائدا على ذلك .

وحديث عبد الرحمن بن سمرة الذى قبله يؤكد ذلك لورود الأمر فيه بفعل الخير وكذا الكفارة .

وقال فى موضع آخر : ولأنه ربما عجز عن الوفاء بها ، ويحمل ما ورد من ذلك على ما إذا كان فى طاعة ، أو دعت إليها حاجة كتأكيد أمر أو تعظيم من يستحق التعظيم ، أو كان فى دعوى عند الحاكم وكان صادقا .

---

(١) رواه مسلم [١٦٥٠/ ٦] ، والترمذى [١٥٣٠] ، والنسائى فى الكبرى [٣/ ١٢٦/ ٤٧٢٢] ، ومالك فى الموطأ [٢/ ٤٧٨] .

(٢) رواه البخارى [٦٦٢٣] ، ومسلم [١٦٤٩/ ٧] ، والنسائى فى الكبرى [٣/ ١٢٦/ ٤٧٢١] ، وابن ماجه [٢١٠٧] .

(٣) رواه مسلم [١٦٥١/ ١٢] ، والنسائى [٣/ ١٢٨/ ٤٧٢٧] ، وابن ماجه [٢١٠٨] .

(٤) رواه البخارى [٦٦٢٢] ، ومسلم [١٦٥٢/ ١٩] ، وأبو داود [٢٩٢٩] ، والترمذى [١٥٢٩] ، والنسائى فى الكبرى [٣/ ٤٦٣/ ٥٩٣٠] ، والنسائى فى المجتبى [٨/ ٢٢٥/ ٥٣٨٤] .

اليمين الغموس

السؤال : ما هي اليمين الغموس ؟

الجواب : إنه اليمين الذى حلفته على شىء وأنت تعلم أنه على عكس ما حلفت ، والحق سبحانه وتعالى عندما يتكلم عن اليمين يعطينا أصلاً من أصول اعتبار اليمين هل هو يمين حقًا أم لغوًا ، ومن رحمة اللَّه أنه سبحانه وتعالى لم يأخذ إلا باليمين الذى عُقد القلب عليه ، أى : الذى يقصد صاحبه ألا يحنث فيه ، أما لغو اليمين فقد تجاوز اللَّه عنه .

مثلاً : الأَيمان الدارجة على ألسنة الناس كقولهم : « واللَّه لو لم تفعل كذا لفعلت معك كذا » ، و « واللَّه سأزورك » ، « واللَّه ما كان قصدى » أو الحلف بناءً على الظن ؛ كأن تحلف بقولك : « واللَّه حدث هذا » وأنت غير متأكد من تمام حدوثه ، لكن ليس فى مقصدك الكذب .

أما اليمين الغموس فهى الحلف والقسم الذى تعرف كذبه وتحلف بعكس ما تعرف ، كأن تكون قد شاهدت واحدًا يسرق أو يقتل وتحلف باللَّه أنه لم يسرق أو لم يقتل ، من أجل ذلك كله يحسم اللَّه سبحانه وتعالى هذه القضية بقوله : ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٥] .

وكان من المناسب أن تأتى هذه الآية بعد كل ما سبق لأنه سبحانه بيَّن لنا اليمين التى لا تقع وكأنه قال لنا : ارجعوا فيها واحنثوا وسأقبل رجوعكم فى مقابل أن تبروا وتتقوا وتصلحوا[1] .

---

(١) قلت : روى البخارى عن عبد اللَّه بن عمرو رضى اللَّه تعالى عنهما قال : جاء أعرابى إلى النبى صلى اللَّه عليه وسلم فقال : يا رسول اللَّه ما الكبائر ؟
قال : « الإشراك بالله » قال : ثم ماذا ؟ قال : « عقوق الوالدين » قال : ثم ماذا ؟ قال : =

= « **اليمين الغموس** » **قلت : وما اليمين الغموس ؟ قال : « التي يقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها كاذب »**[(١)] .

وروى مسلم عن أبي أمامة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة » .

فقال رجل : وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله ؟

قال : « وإن كان قضيبا من أراك »[(٢)] .

ومن حديث عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان »[(٣)] فنزلت : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ إلى آخر الآية ولم يذكر كفارة ، فلو أوجبنا عليه كفارة لسقط جرمه ، ولقي الله وهو عنه راض ، ولم يستحق الوعيد المتوعد عليه ؛ وكيف لا يكون ذلك وقد جمع هذا الحالف الكذب ، واستحلال مال الغير ، والاستخفاف باليمين بالله تعالى ، والتهاون بها وتعظيم الدنيا ؟ فأهان ما عظمه الله ، وعظم ما حقره الله وحسبك . **ولهذا قيل : إنما سميت اليمين الغموس غموسا لأنها تغمس صاحبها فى النار** .

---

(١) رواه البخارى [٦٦٧٥] ، ٦٨٧٠، ٦٩٢٠] .

(٢) رواه مسلم [١٣٧/ ٢١٨] .

(٣) رواه مسلم [١٣٨/ ٢٢٠] .

obeikandl.com

توثيق الدَّين

السؤال : **يأمرنا اللَّه سبحانه وتعالي أن نوثق الديون بالكتابة . . فما حكمة ذلك ؟**

الجواب : عندما يقول اللَّه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

فقوله : ﴿ فَٱكْتُبُوهُ ﴾ يضمن المال لصاحب المال . . صحيح هو يضمن المال لصاحب المال . . لكنه فى الوقت نفسه يحمى المقترض من نفسه . . ويحمى المجتمع أيضًا . . فقد يأكل المقترض المال ما دام ليس هناك كتابة أو توثيق . . فالمسألة ليست فى أكل المال . . ولكنها تجعل كل ذى مال يضمن أن يستدين أحد منه ويرد له المال . . أما ألا يرد المال المقترض ، فعندئذ تقف العجلة . لكنه عندما يكتبه يعرف أنه لابد عليه أن يؤديه ، فيعمل ويجد ويؤديه لصاحبه .

إذن . . كتابة المال ليست حفاظًا على صاحب الدين . . ولكنها حفاظ على المدين نفسه من نفسه . وحفاظ على المجتمع من أن تتسرب إليه ظاهرة عدم الثقة .

● كأن الإسلام يمنع الدَّين إلا بتوثيق . . ؟

○ نعم . . إلا إذا كانت المعاملة بينك وبين من تأمنه وتثق به ، كما يقولون : ماله كمالك ، فيقول اللَّه سبحانه تعالى فى مثل هؤلاء : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ﴾ [البقرة : ٢٨٣] .

فالذى وضعته أنت فى هذا الموضع ، ليس هناك ما يمنع من ألا تكتبه . وكذلك إذا كانت المعاملات كثيرة وزائدة وبشكل مستمر ، فيقول اللَّه تعالى : ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا

﴿ تَكْتُبُوهَآ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ؛ لأن عملية الكتابة قد تكون متعذرة فى الديون التجارية[١] .

---

(١) قال القرطبي فى التفسير : قال ابن عباس : هذه الآية نزلت فى السلم خاصة . معناه أن سلم أهل المدينة كان سبب الآية ، ثم هي تتناول جميع المداينات إجماعا .
وقال ابن خويز منداد : إنها تضمنت ثلاثين حكما .
وقد استدل بها بعض علمائنا على جواز التأجيل فى القروض ، على ما قال مالك ، إذ لم يفصل بين القرض وسائر العقود فى المداينات . وخالف فى ذلك الشافعية وقالوا: الآية ليس فيها جواز التأجيل فى سائر الديون ، وإنما فيها الأمر بالإشهاد إذا كان دَيْناً مؤجلا، ثم يعلم بدلالة أخرى جواز التأجيل فى الدين وامتناعه .
وقوله تعالى : ﴿ فَٱكْتُبُوهُ ﴾ يعنى : الدين والأجل . ويقال : أمر بالكتابة ولكن المراد الكتابة والإشهاد ، لأن الكتابة بغير شهود لا تكون حجة . ويقال : أمرنا بالكتابة لكيلا ننسى . وروى أبو داود الطيالسي فى مسنده عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فى قول اللّه عز وجل : ﴿ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾ إلى آخر الآية : « إن أول من جحد آدم عليه السلام إن اللّه أراه ذريته فرأى رجلا أزهر ساطعا نوره فقال يا رب من هذا قال: هذا ابنك داود ، قال : يا رب فما عمره ؟ قال : ستون سنة ، قال : يا رب زده فى عمره ! فقال : لا إلا أن تزيده من عمرك ، قال : وما عمرى ؟ قال : ألف سنة ، قال آدم فقد وهبت له أربعين سنة ، قال : فكتب اللّه عليه كتابا وأشهد عليه ملائكته فلما حضرته الوفاة جاءته الملائكة ، قال : إنه بقي من عمري أربعون سنة ، قالوا : إنك قد وهبتها لابنك داود ، قال : ما وهبت لأحد شيئا ، فأخرج اللّه تعالى الكتاب وشهد عليه ملائكته – فى رواية : وأتم لداود مائة سنة ولآدم عمره ألف سنة [١] . خرجه الترمذى أيضا .
وفي قوله : ﴿ فَٱكْتُبُوهُ ﴾ إشارة ظاهرة إلى أنه يكتبه بجميع صفته المبينة له ، المعربة عنه ، للاختلاف المتوهم بين المتعاملين ، المعرفة للحاكم ما يحكم به عند ارتفاعهما إليه . والله أعلم .
قوله تعالى : ﴿ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ نص فى رفض الكفار والصبيان والنساء ، وأما العبيد فاللفظ يتناولهم .
وقال مجاهد : المراد الأحرار ، واختاره القاضي أبو إسحاق وأطنب فيه . وقد اختلف العلماء فى شهادة العبيد ، فقال شريح وعثمان البتي وأحمد وإسحاق وأبو ثور : شهادة العبد جائزة إذا كان عدلا ، وغلبوا لفظ الآية .
وقال مالك وأبو حنيفة والشافعي وجمهور العلماء : لا تجوز شهادة العبد ، وغلبوا نقص =

---

(١) رواه أبو داود الطيالسى [٢٦٩٢] ، والبيهقى فى الكبرى [١٠/١٤٦/٢٠٣٠٥] ، والترمذى [٣٠٧٦] عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه وقال الألباني : حسن .

= الرق ، وأجازها الشعبى والنخعى فى الشىء اليسير .
والصحيح قول الجمهور ، لأن اللّه تعالى قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] وساق الخطاب إلى قوله : ﴿ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ فظاهر الخطاب يتناول الذين يتداينون ، والعبيد لا يملكون ذلك من دون إذن السادة . فإن قالوا : إن خصوص أول الآية لا يمنع التعلق بعموم آخرها . قيل لهم : هذا يخصه قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ﴾ على ما يأتى بيانه .
وقوله : ﴿ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ دليل على أن الأعمى من أهل الشهادة لكن إذا علم يقينا ، مثل ما روى عن ابن عباس قال: سئل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن الشهادة فقال : « ترى هذه الشمس فاشهد على مثلها أو دع »[1] . وهذا يدل على اشتراط معاينة الشاهد لما يشهد به ، لا من يشهد بالاستدلال الذى يجوز أن يخطئ . نعم يجوز له وطء امرأته إذا عرف صوتها ، لأن الإقدام على الوطء جائز بغلبة الظن ، فلو زفت إليه امرأة وقيل : هذه امرأتك وهو لا يعرفها جاز له وطؤها ، ويحل له قبول هدية جاءته بقول الرسول . ولو أخبره مخبر عن زيد بإقرار أو بيع أو قذف أو غصب لما جاز له إقامة الشهادة على المخبَر عنه ، لأن سبيل الشهادة اليقين ، وفى غيرها يجوز استعمال غالب الظن ، ولذلك قال الشافعى وابن أبى ليلى وأبو يوسف : إذا علمه قبل العمى جازت الشهادة بعد العمى ، ويكون العمى الحائل بينه وبين المشهود عليه كالغيبة والموت فى المشهود عليه . فهذا مذهب هؤلاء .
والذى يمنع أداء الأعمى فيما تحمل بصيرا لا وجه له ، وتصح شهادته بالنسب الذى يثبت بالخبر المستفيض ، كما يخبر عما تواتر حكمه من الرسول صلى اللّه عليه وسلم . ومن العلماء من قبل شهادة الأعمى فيما طريقه الصوت ، لأنه رأى الاستدلال بذلك يترقى إلى حد اليقين ، ورأى أن اشتباه الأصوات كاشتباه الصور والألوان . وهذا ضعيف يلزم منه جواز الاعتماد على الصوت للبصير .
قلت : مذهب مالك فى شهادة الأعمى على الصوت جائزة فى الطلاق وغيره إذا عرف الصوت .
قال ابن قاسم : قلت لمالك : فالرجل يسمع جاره من وراء الحائط ولا يراه ، يسمعه يطلق امرأته فيشهد عليه وقد عرف الصوت ؟ قال : قال مالك : شهادته جائزة .
وقال ذلك على بن أبى طالب والقاسم بن محمد وشريح الكندى والشعبى وعطاء بن أبى رباح ويحيى بن سعيد وربيعة وإبراهيم النخعى ومالك والليث .
وقوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ ﴾ المعنى : إن لم يأت الطالب برجلين فليأت برجل وامرأتين ، هذا قول الجمهور . ﴿ فَرَجُلٌ ﴾ رفع بالابتداء ، ﴿ وَٱمْرَأَتَانِ ﴾ =

(١) رواه الخلال كما فى إرواء الغليل [٨/ ٢٨٢/ ٢٦٦٧] ، وذكره الطحاوى فى العقيدة الطحاوية [ص : ٩٠] وضعفه الألبانى .

= عطف عليه والخبر محذوف . أى : فرجل وامرأتان يقومان مقامهما . ويجوز النصب فى غير القرآن ، أى : فاستشهدوا رجلا وامرأتين .

وحكى سيبويه : إن خنجرا فخنجرا .

وقال قوم : بل المعنى فإن لم يكن رجلان ، أى : لم يوجدا فلا يجوز استشهاد المرأتين إلا مع عدم الرجال . قال ابن عطية : وهذا ضعيف ، فلفظ الآية لا يعطيه ، بل الظاهر منه قول الجمهور ، أى : إن لم يكن المستشهد رجلين ، أى : إن أغفل ذلك صاحب الحق أو قصده لعذر ما فليستشهد رجلا وامرأتين . فجعل تعالى شهادة المرأتين مع الرجل جائزة مع وجود الرجلين فى هذه الآية ، ولم يذكرها فى غيرها ، فأجيزت فى الأموال خاصة فى قول الجمهور ، بشرط أن يكون معهما رجل . وإنما كان ذلك فى الأموال دون غيرها ، لأن الأموال كثر اللّه أسباب توثيقها لكثرة جهات تحصيلها وعموم البلوى بها وتكررها ، فجعل فيها التوثق تارة بالكتبة وتارة بالإشهاد وتارة بالرهن وتارة بالضمان ، وأدخل فى جميع ذلك شهادة النساء مع الرجال . ولا يتوهم عاقل أن قوله تعالى : ﴿ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ ﴾ يشتمل على دين المهر مع البضع ، وعلى الصلح على دم العمد ، فإن تلك الشهادة ليست شهادة على الدين ، بل هي شهادة على النكاح . وأجاز العلماء شهادتهن منفردات فيما لا يطلع عليه غيرهن للضرورة . وعلى مثل ذلك أجيزت شهادة الصبيان فى الجراح فيما بينهم للضرورة .

وقد اختلف العلماء فى شهادة الصبيان فى الجراح :

فأجازها مالك ما لم يختلفوا ولم يفترقوا . ولا يجوز أقل من شهادة اثنين منهم على صغير لكبير ولكبير على صغير . وممن كان يقضي بشهادة الصبيان فيما بينهم من الجراح عبدالله بن الزبير . وقال مالك : وهو الأمر عندنا المجتمع عليه . ولم يجز الشافعي وأبو حنيفة وأصحابه شهادتهم، لقوله تعالى : ﴿ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ وقوله : ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ ﴾ وقوله : ﴿ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [الطلاق : ٢]وهذه الصفات ليست فى الصبى .

وقوله تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُوٓاْ ﴾ قال الطبرى : معناه وأشهدوا على صغير ذلك وكبيره.

واختلف الناس هل ذلك على الوجوب أو الندب ؟

فقال أبو موسى الأشعري وابن عمر والضحاك وسعيد بن المسيب وجابر بن زيد ومجاهد وداود بن علي وابنه أبو بكر : هو على الوجوب ، ومن أشدهم فى ذلك عطاء قال: أشهد إذا بعت وإذا اشتريت بدرهم أو نصف درهم أو ثلث أو أقل من ذلك ، فإن اللّه عز وجل يقول : ﴿ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ .

وعن إبراهيم قال : أشهد إذا بعت وإذا اشتريت ولو دَسْتَجَةَ بَقْلٍ .

وممن كان يذهب إلى هذا ويرجحه الطبرى ، وقال : لا يحل لمسلم إذا باع وإذا اشترى إلا أن يشهد ، وإلا كان مخالفا كتاب اللّه عز وجل ، وكذا إن كان إلى أجل فعليه أن يكتب ويشهد إن وجد كاتبا . وذهب الشعبي والحسن إلى أن ذلك على الندب والإرشاد لا على الحتم . ويحكى أن هذا قول مالك والشافعي وأصحاب الرأى . وزعم ابن العربي أن هذا=

= قول الكافة ، قال : وهو الصحيح . ولم يحك عن أحد ممن قال بالوجوب إلا الضحاك .
قال : وقد باع النبى صلى الله عليه وسلم وكتب .
قال : ونسخة كتابه : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اشترى العداء بن خالد بن هوذة من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اشترى منه عبدا - أو أمة - لا داء ولا غائلة ولا خبثة بيع المسلم المسلم »[1] . وقد باع ولم يشهد ، واشترى ورهن درعه عند يهودي ولم يشهد . ولو كان الإشهاد أمرا واجبا لوجب مع الرهن لخوف المنازعة .
قلت : قد ذكرنا الوجوب عن غير الضحاك . وحديث العداء هذا أخرجه الدارقطني وأبو داود . وكان إسلامه بعد الفتح وحنين ، وهو القائل : قاتلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فلم يظهرنا الله ولم ينصرنا ، ثم أسلم فحسن إسلامه .
ذكره أبو عمر ، وذكر حديثه هذا ، وقال فى آخره : قال الأصمعى : سألت سعيد بن أبي عروبة عن الغائلة فقال : الإباق والسرقة والزنى ، وسألته عن الخبثة فقال : بيع أهل عهد المسلمين .
وقال الإمام أبو محمد بن عطية : والوجوب فى ذلك قلق ، أما فى الدقائق فصعب شاق ، وأما ما كثر فربما يقصد التاجر الاستئلاف بترك الإشهاد ، وقد يكون عادة فى بعض البلاد ، وقد يستحيي من العالم والرجل الكبير الموقر فلا يشهد عليه ، فيدخل ذلك كله فى الائتمان ويبقى الأمر بالإشهاد ندبا ، لما فيه من المصلحة فى الأغلب ما لم يقع عذر يمنع منه كما ذكرنا .
وحكى المهدوي والنحاس ومكي عن قوم أنهم قالوا : ﴿ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ منسوخ بقوله : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [البقرة : ٢٨٣]وأسنده النحاس عن أبي سعيد الخدرى ، وأنه تلا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ﴾ .
قال : نسخت هذه الآية ما قبلها .
قال النحاس : وهذا قول الحسن والحكم وعبدالرحمن بن زيد .
قال الطبرى : وهذا لا معنى له ، لأن هذا حكم غير الأول ، وإنما هذا حكم من لم يجد كاتبا قال الله عز وجل : ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ - أي فلم يطالبه برهن - ﴿ فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ﴾ .
قال : ولو جاز أن يكون هذا ناسخا للأول لجاز أن يكون قوله عز وجل : ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ ﴾ [النساء : ٤٣] الآية ناسخا لقوله عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [المائدة : ٦] الآية ولجاز أن يكون قوله عز وجل : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ ناسخا لقوله عز وجل : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ [النساء : ٩٢] . =

(١) رواه الترمذى [١٢١٦] ، وابن ماجه [٢٢٥١] عن العداء بن خالد رضى الله تعالى عنه وقال الألباني : حسن .

= وقال بعض العلماء : إن قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ لم يتبين تأخر نزوله عن صدر الآية المشتملة على الأمر بالإشهاد ، بل وردا معا . ولا يجوز أن يرد الناسخ والمنسوخ معا جميعا فى حالة واحدة . قال : وقد روي عن ابن عباس أنه قال لما قيل له : إن آية الدين منسوخة قال : لا والله إن آية الدين محكمة ليس فيها نسخ . قال : والإشهاد إنما جعل للطمأنينة ، وذلك أن الله تعالى جعل لتوثيق الدين طرقا ، منها الكتاب ، ومنها الرهن ، ومنها الإشهاد . ولا خلاف بين علماء الأمصار أن الرهن مشروع بطريق الندب لا بطريق الوجوب . فيعلم من ذلك مثله فى الإشهاد . وما زال الناس يتبايعون حضرا وسفرا وبرا وبحرا وسهلا وجبلا من غير إشهاد مع علم الناس بذلك من غير نكير ، ولو وجب الإشهاد ما تركوا النكير على تاركه .

قلت : هذا كله استدلال حسن ، وأحسن منه ما جاء من صريح السنة فى ترك الإشهاد ، وهو ما خرجه الدارقطني عن طارق بن عبدالله المحاربي قال : « أقبلنا فى ركب من الربذة وجنوب الربذة ؛ حتى نزلنا قريبا من المدينة ومعنا ظعينة لنا ؛ فبينا نحن قعود إذ أتانا رجل عليه ثوبان أبيضان فسلم فرددنا عليه ، فقال : من أين أقبل القوم ؟ فقلنا : من الربذة وجنوب الربذة . قال : ومعنا جمل أحمر ، فقال : تبيعوني جملكم هذا ؟ فقلنا : نعم . قال بكم ؟ قلنا : بكذا وكذا صاعا من تمر . قال : فما استوضعنا شيئا وقال : قد أخذته ، ثم أخذ برأس الجمل حتى دخل المدينة فتوارى عنا ، فتلاومنا بيننا وقلنا : أعطيتم جملكم من لا تعرفونه ! فقالت الظعينة : لا تلاوموا فقد رأيت وجه رجل ما كان ليخفركم . ما رأيت وجه رجل أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه . فلما كان العشاء أتانا رجل فقال : السلام عليكم ، أنا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكم ، وإنه أمركم أن تأكلوا من هذا حتى تشبعوا ، وتكتالوا حتى تستوفوا . قال : فأكلنا حتى شبعنا ، واكتلنا حتى استوفينا »[١] . وذكر الحديث الزهري عن عمارة بن خزيمة أن عمه حدثه وهو من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم ابتاع فرسا من أعرابى . . الحديث . وفيه : فطفق الأعرابي يقول : هلم شاهدا يشهد أني بعتك - قال خزيمة بن ثابت : أنا أشهد أنك قد بعته . فأقبل النبى صلى الله عليه وسلم على خزيمة فقال : « بم تشهد » ؟ فقال : بتصديقك يا رسول الله . قال : فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادة خزيمة بشهادة رجلين[٢] . أخرجه النسائى وغيره .

(١) رواه الدارقطنى فى سننه [٣/ ٤٤/ ١٨٦] ، وابن حبان [٦٥٦٢] وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح .
(٢) رواه النسائى فى المجتبى [٧/ ٣٠١/ ٤٦٤٧] وقال الألباني : صحيح .

لا يكلف اللَّه نفسًا إلا وسعها

السؤال : **يعتذر كثير من الناس من عدم تنفيذ أوامر الدين بقوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ . . مدعين أن هذا الأمر ليس فى وسعهم . . فهل هذا عذر مقبول ؟**

الجواب : هؤلاء قدروا الوسع وحددوه ، ثم جاءوا بالتكليف . . ثم قالوا : هل يتسع الوسع الذى حددناه لهذا التكليف أو لا ؟

لكننا نقول : إن اللَّه سبحانه وتعالى حين يكلف يعلم أن الوسع متسع ؛ لأن اللَّه لا يكلف إلا بما فى الوسع ، بدليل أن المكلَّف عندما يعلم أن التكليف ليس فى وسعك هو الذى يخفف عنك من عنده .

فإذا كنت مكرهًا لا يكلفك . . وإذا كنت ناسيًا لا يكلفك . . وإذا كنت لم تبلغ رشد العقل واكتماله لا يكلفك . . والمسافر يخفف عنه . . وهكذا فى جميع الأمور . . لكن ليس من حقى أن أقدر أنا الوسع . . بدليل أن هذه الأمور التى تدَّعى أنها ليست فى وسعك وهى فى وسع سواك . . فانظر هل يؤدى سواك هذا التكليف أو لا ؟

حين يثبت أن اللَّه تعالى كلف إنسانًا فهذه شهادة منه أنه فى وسعه . . وحين يعلم أن الوسع لا يقدر فإنه يخففه عليه . . ولكن اللَّه لا يكلف نفسًا إلا وسعها[1] .

---

(١) قال القرطبي فى التفسير : قوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا وُسْعَهَا ﴾ يعنى : طاقتها ، ويقال : إلا دون طاقتها .
وفيه : التكليف هو الأمر بما يشق عليه وتكلفت الأمر تجشمته ، حكاه الجوهرى .
والوسع : الطاقة والجدة . وهذا خبر جزم . نص اللَّه تعالى على أنه لا يكلف العباد من وقت نزول الآية عبادة من أعمال القلب أو الجوارح إلا وهي فى وسع المكلف وفى مقتضى إدراكه وبنيته .
وقال ابن جرير الطبري فى التفسير : ولا نكلف نفسا إلا ما يسعها ويصلح لها من العبادة ؛ ولذلك كلفناها ما كلفناها من معرفة وحدانية اللَّه ، وشرعنا لها ما شرعنا من الشرائع .

المتشابه فى القرآن

السؤال : لماذا ورد المتشابه فى القرآن ؟

الجواب : الراسخون فى العلم يقولون : آمنا باللّه ، وإن لم نفهم شيئًا ، فكلٌّ من عند اللّه أي محكمه من عند اللّه ، ومتشابهه من عند اللّه ، وكما أن العين لها حد للإدراك النظرى ، فإن الأذن لها حد للإدراك السمعى ، وكذلك العقل له حد للإدراك العقلى .

ولذلك قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « وما عرفتم من محكمه فاعملوا به ، وما عرفتم من متشابهه فآمنوا به »[1] .

---

(١) رواه الطبراني فى الأوسط [١/ ١٦٥/ ٥١٥] بمعناه عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضى اللّه تعالى عنهما ، وقال الطبرانى : لم يرو هذا الحديث عن سليمان إلا ابنه تفرد به عمرو الناقد . وذكره السيوطي فى الدر المنثور عزاه لنصر المقدسي فى الحجة .

وروى ابن جرير فى التفسير ، والحاكم فى المستدرك [١/ ٧٣٩] ، وابن حبان [٧٤٥] وقال الأرناؤوط رجاله ثقات ولكنه منقطع وصححه ، وأبو نصر السجزي فى الإبانة ، عن ابن مسعود رضى اللّه تعالى عنه عن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال : كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف. زاجر وآمر ، وحلال وحرام ، ومحكم ومتشابه وأمثال : فأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، وافعلوا بما أمرتم به ، وانتهوا عما نهيتم عنه ، واعتبروا بأمثاله واعملوا بمحكمه ، وآمنوا بمتشابهه ، وقولوا : ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ وأخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود . موقوفا .

وروى الطبراني فى الكبير [٩/ ٢٦/ ٨٢٩٦] عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه : أن النبى صلى اللّه عليه وسلم . قال لعبد اللّه بن مسعود : « إن الكتب كانت تنزل من السماء ، من باب واحد ، وإن القرآن نزل من سبعة أبواب على سبعة أحرف ، حلال وحرام ، ومحكم ومتشابه ، وضرب أمثال ، وآمر وزاجر ، فأحل حلاله ، وحرم حرامه ، واعمل بمحكمه ، وقف عند متشابهه ، واعتبر أمثاله . فإن كلا من عند اللّه ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

وقال الهيثمي فى مجمع الزوائد [٧/ ١٥٥] : رواه الطبراني وفيه عمار بن مطر وهو ضعيف جدا وقد وثقه بعضهم .

=

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن

= وقال ابن جرير فى التفسير : فقد تبين ببيان اللّه عز وجل ذكره ، أن مما أنزل اللّه من القرآن على نبيه صلى اللّه عليه وسلم ما لا يوصل إلى علم تأويله إلا ببيان الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، وذلك تأويل جميع ما فيه ، من وجوه أمره ، واجبه ، وندبه ، وإرشاده ، وصنوف نهيه ، ووظائف حقوقه ، وحدوده ، ومبالغ فرائضه ، ومقادير اللازم بعض خلقه لبعض ، وما أشبه ذلك من أحكام آيه ، التى لم يدرك علمها إلا ببيان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لأمته . وهذا وجه لا يجوز لأحد القول فيه ، إلا ببيان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، بتأويله ، بنص منه عليه ، أو بدلالة قد نصبها دالةً أمته على تأويله .

وأن منه ما لا يعلم تأويله إلا اللّه الواحد القهار : وذلك ما فيه من الخبر عن آجال حادثة ، وأوقات آتية ، كوقت قيام الساعة ، والنفخ فى الصور ، ونزول عيسى بن مريم ، وما أشبه ذلك ؛ فإن تلك أوقات لا يعلم أحد حدودها ، ولا يعرف أحد من تأويلها إلا الخبر بأشراطها ، لاستئثار اللّه بعلم ذلك على خلقه .

وكذلك أنزل ربنا فى محكم كتابه ، فقال : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وكان نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، إذا ذَكَر شيئاً من ذلك لم يدل عليه إلا بأشراطه ، بدون تحديده بوقت ، كالذى روى عنه ، صلى اللّه عليه وسلم ، أنه قال لأصحابه إذا ذكر الدجال : « إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ ، فأَنَا حَجِيجُهُ ، وإِنْ يَخْرُجْ بَعْدِى ، فَاللّه خَلِيفَتِي عَلَيْكُمْ »[(١)] .

وما أشبه ذلك من الأخبار ، التى يطول باستيعابها الكتاب ، الدالة على أنه صلى اللّه عليه وسلم ، لم يكن عنده علم أوقات شىء منه، بمقادير السنين والأيام ، وأن اللّه جلّ ثناؤه ، إنما كان عرّفه مجيئه بأشراطه ، ووقته بأدلته .

وأن منه ما يعلم تأويله كلُّ ذى علم باللسان الذى نزل به القرآن ، وذلك إقامة إعرابه ، ومعرفة المسميات بأسمائها اللازمة ، غير المشترك فيها ، والموصوفات بصفاتها الخاصة دون ما سواها ، فإن ذلك لا يجهله أحد منهم ، وذلك كسامع منهم لو سمع تالياً يتلو : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البقرة] . لم يجهل أن معنى الإفساد هو ما ينبغى تركه مما هو مضرّة ، وأن الإصلاح هو ما ينبغى فعله ، مما فعله منفعة ؛ وإن جهل المعانى التى جعلها اللّه إفسادا ، والمعانى التى جعلها اللّه إصلاحاً ، فالذى يعلمه ذو اللسان الذى بلسانه نزل القرآن ، من =

(١) رواه مسلم [٢٩٣٧/ ١١٠] ، والترمذى [٢٢٤٠] ، وابن ماجه [٤٠٧٥] عن النواس بن سمعان رضى اللّه تعالى عنه .

﴿ رَبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ . فاللّه سبحانه وتعالى جعل للمؤمن ابتلاء ، والابتلاء يجب أن يفهم على أنه امتحان . والحق يريد أن يميز الخبيث من الطيب ، وهو يعلم مَن الخبيث ، ومَن الطيب . إنما يريد أن يكون العلم واقعًا من جهتك أنت ؛ ليكون حجة عليك . وهو يعلم . . إنما يريد العلم بشهادتك أنت ؛ لأنه لو قال يعلم

= تأويل القرآن ، هو ما وصفت من معرفة أعيان المسميات بأسمائها اللازمة ، غير المشترك فيها ، والموصوفات بصفاتها الخاصة ، بدون الواجب من أحكامها وصفاتها وهيئاتها ، التى خص اللّه بعلمها نبيه صلى اللّه عليه وسلم ، فلا يدرك علمه إلا ببيانه ، دون ما استأثر اللّه بعلمه دون خلقه .

وبمثل ما قلنا من ذلك ، روى الخبر عن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما

قال : التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا اللّه .

قال أبو جعفر : وهذا الوجه الرابع الذى ذكره ابن عباس ، من أن أحدا لا يعذر بجهالته ، معنى غير الإبانة عن وجوه مطالب تأويله ، وإنما هو خبر عن أن مِنْ تأويله ما لا يجوز لأحد الجهل به ؛ وقد روى بنحو ما قلنا فى ذلك أيضاً ، عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم خبر فى إسناده نظر . عن عبد اللّه بن عباس ، أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : أُنْزِلَ القُرآنُ على أرْبَعَةِ أحْرُفٍ : حَلالٍ ، وَحَرَام لا يُعْذَرُ أحَدٌ بالجَهالَة به ، وَتَفْسِيرٍ يُفَسِّرُهُ العَرَبُ ، وتَفْسِيرٍ تُفَسِّرُهُ العُلَماءُ ، وَمُتَشابِهٍ لا يَعْلَمُهُ إلَّا اللّه ، وَمَن ادَّعَى علْمَهُ سِوَى اللّه ، فَهُوَ كاذِبٌ .

وعن الربيع : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران : ٧] قال : المحكمات : التى يعمل بها .

وعن الضحاك فى قوله : ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ ﴾ يعنى : الناسخ الذى يعمل به، ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ يعنى : المنسوخ ، يؤمن به ولا يعمل به . وفى رواية عنه قال : ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ ﴾ قال : ما لم ينسخ ، ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ قال : ما قد نسخ .

وقال آخرون : المحكمات من آي الكتاب : ما أحكم اللّه فيه بيان حلاله وحرامه ؛ والمتشابه منها : ما أشبه بعضه بعضا فى المعانى وإن اختلفت ألفاظه .

وروى البخارى [٤٥٤٧] ، ومسلم [٢٦٦٥/١] عن عائشة رضى اللّه تعالى عنها قالت : تلا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران : ٧] .

قالت : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه ، فأولئك الذين سمى الله ، فاحذروهم » .

فيك ربما قلت : لو كنت انتظرت ؛ لكان وكان كذا وكذا .

القرآن واحد لكن القابل مختلف ، وكذلك الأمر فى استقبال كل الغيبيات ، واستقبال كل الأشياء التى يقف فيها العقل ، فإن المؤمن يستقبلها على أنها حق من حق . فهمها أم لم يفهمها .

وهذا هو السبب فى ورود المتشابه فى القرآن . القرآن جاء ليبين لنا أحكامًا والمتشابه جاء فى القرآن ليعطى معايير الإيمان ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [آل عمران : ٧] ، ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ .

obeikandl.com

ما معنى : مـكر اللَّه ؟

السـؤال : أخبرنا اللَّه عز وجل بمكره للكافرين ، فكيف نفهمه ؟

الجـواب : ما هو المكر أولاً ؟ المكر هو : أن يعلن المرء شيئًا ، ويضمر شيئًا آخر . وهناك مكر سيئ ، ومكر حسن ، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله .

والمكر هو : تبييت باطن ، وتغليفه بظاهر ، لكي يحقق شيئًا لو اطلع عليه الممكور به لتَلافَاه .

وكلما كان للإنسان قدرة على تغليف مراده فى ظاهره كان ماكرًا . ولكن مراده فى ظاهره لمن يحب أو لمن يكره ، بالخير أم بالشر ؟

إذا كان المكر لمن يحب بالخير فهو المكر المحمود ، وأكون قد مكرت به لفائدة له . أما العكس فهو مذموم .

إذن . . فالمسألة هي تبييت ، والتبييت يقتضى أن المبيت له جاهل بما يبيت له ، ولكن عندما يريد اللَّه سبحانه أن يبيت أمرًا فمن ذا الذى يستطيع أن يعرفه . إذن . . لا يمكن لأى مخلوق أن يمكر مع اللَّه أبدًا .

ولقد قال اللَّه تعالى عن نفسه : ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤] . يعنى أنه سبحانه وتعالى عندما يمكر فمكره خير[١] .

---

(١) قال القرطبي فى التفسير : أصل المكر فى اللغة : الاحتيال والخداع . والمكر : خدالة الساق . وامرأة ممكورة الساقين . والمكر : ضرب من الثياب . ويقال : بل هو المَغْرَة ؛ حكاه ابن فارس .

وقيل : ﴿ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾ إلقاء شَبَه عيسى على غيره ورفع عيسى إليه ، وذلك أن اليهود لما اجتمعوا على قتل عيسى دخل البيت هاربا منهم فرفعه جبريل من الكوة إلى السماء ، فقال ملكهم لرجل منهم خبيث يقال له يهوذا : ادخل عليه فاقتله ، فدخل الخوخة فلم يجد هناك عيسى وألقى اللَّه عليه شبه عيسى ، فلما خرج رأوه على شبه عيسى فأخذوه وقتلوه=

= وصلبوه . ثم قالوا : وجهه يشبه وجه عيسى ، وبدنه يشبه بدن صاحبنا ؛ فإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى ؟ وإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ؟ فوقع بينهم قتال فقتل بعضهم بعضا ؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾ وقيل غير هذا .

﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ اسم فاعل من مكر يمكر مكرا . وقد عده بعض العلماء فى أسماء اللّه تعالى فيقول إذا دعا به : يا خير الماكرين أمكر لى . وكان عليه السلام يقول فى دعائه : « اللهم امكر لى ولا تمكر على » (١).

وقال فى موضع آخر : والمكر : التدبير فى الأمر فى خفية .

﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ ، ﴿ خَيْرُ ﴾ ابتداء وخبر . والمكر من اللّه هو جزاؤهم بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون .

(١) أنظر الأسنى فى شرح أسماء اللّه الحسنى للقرطبى ، والنهاية فى غرى الحديث لابن الأثير حرف الميم ؛ باب الميم مع الكاف ، ولسان العرب لابن منظور حرف الراء فصل الميم .

obeikandl.com